

الملاحقَات

1. مِنْ كِتَابَاتِ النَّامِي
2. مِنْ مُرَاسَلَاتِ النَّامِي
3. مِنْ قِصَائِدِ النَّامِي
4. مِلْحَقَاتٌ أُخْرَى مُتَعَلِّقَةٌ
5. مِنْ صُورِ النَّامِي

أ) مُقَدِّمَةُ النَّامِيِّ عَلَى كِتَابِ فَنَائِرِ الْخَيْرَاتِ*

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، وَعِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى.

وَبَعْدُ؛ فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَضَرَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ تَفَرُّقِهِمْ وَتَشَتُّتِهِمْ،
وَإِعْرَاضِهِمْ بَعْضُهُمْ عَنِ الْبَعْضِ، وَانْشِغَالِهِمْ عَنْ إِعْدَادِ الْقُوَّةِ الَّتِي تَضْمَنُ لَهُمْ
الْغَلْبَةَ وَالْعِزَّةَ بِمَا أَذْهَبَ رِيحُهُمْ، وَشَتَّتْ شَمْلَهُمْ، مِنَ الصَّرَاحِ عَلَى الدُّنْيَا،
وَالسَّعْيِ لِلْإِسْتِنَارِ بِالسُّلْطَانِ فِيهَا، وَاتِّخَاذِ الْهَوَى مَطِيئَةً لَهُمْ فِيمَا يَرْكَبُونَ،
حَتَّى سَخَّرُوا لِذَلِكَ كُلِّ مَا يُبَلِّغُهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْأَسْبَابِ؛ فَطَعَنُوا فِي دِينِ بَعْضِهِمْ،
وَآتَهُمْ كُلُّ فَرِيقٍ غَيْرَهُ فِي عَقِيدَتِهِ، وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ تَقْبِيلِ الْحَقِّ حِينَمَا يَبِينُ، بَلِ
رُبَّمَا حَرَّضُوا عَلَى طَمْسِ مَعَالِمِهِ وَإِخْفَائِهَا.

وَصَارَتْ تِلْكَ الْقُوَّةُ الْعَظِيمَةُ - الَّتِي قَادَتِ الْفَتْحَ الْإِسْلَامِيَّ، وَحَمَلَتْ
هُدَى اللَّهِ إِلَى أَصْقَاعِ الْأَرْضِ - سَبِيًّا لَضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ وَتَقَهُّرِهِمْ، عِنْدَمَا
انْصَرَفُوا بِهَا عَنْ وَجْهِهَا الْأَوَّلِ، وَقَصَدُوا بِهَا إِلَى الصَّرَاحِ عَلَى السُّلْطَانِ وَتَنَازُعِ
الْمُلْكِ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْخَبِيثِ - بَابِ التَّكَالُبِ عَلَى الدُّنْيَا وَالْإِنْشِغَالِ بِهَا،
وَإِعْرَاضِ عَنِ مَنَهْجِ اللَّهِ الْقَوِيمِ - نَفَذَتِ الشَّيَاطِينُ لِتْبَتِ سُؤْمُومِهَا وَتُلْفِي
سَهَامِهَا، حَتَّى تُضْعِفَ مِنْ أَمْرِ هَذَا الدِّينِ وَأَهْلِهِ.

وَقَدْ نَالَ ذَلِكَ مِنْ قُوَّةِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَأَعْقَبَهُمْ أَنْحِطَاطًا وَتَقَهُّرًا
وَهَزِيمَةً، أَطْمَعَتْ فِيهِمُ الْأَفَاقِينَ وَالْمُرْتَزِقَةَ، وَمَنْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ
مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ، فَنَالُوا مِنْهُمْ مَا لَا يَخْفَى عَلَى مُسْلِمٍ.

وَإِنَّ السَّبِيلَ الْوَحِيدَ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ لَا اسْتِرْدَادَ قُوَّتِهِمْ، وَابْتِعَاثَ

* اِقْتَبَسْنَا مِنْ هَذِهِ الْمَقْدِمَةِ مَوَاضِعَ مِنْهَا تُبَيِّنُ فِكْرَ عَمْرٍو النَّامِيِّ وَرِسَالَتَهُ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا مِنْ أَوَّلِ عَدَلٍ لَهُ أَخْرَجَهُ
لِقُرَّاءِ، وَكُلُّ مَا وَرَدَ فِي هَامِشِهَا مِنْ تَعْلِيقَاتٍ فَهِيَ لِلنَّامِيِّ.

مَجْدِهِمْ، وبناء دَوْلَتِهِمْ: هو الإخلاصُ لله سبحانه في دينهم وديانهم، وإقرارُ العبوديةِ لله سبحانه عقيدةً وشريعةً، والاستعصامُ بدين الله القويم كما جاء به الوحي الكريم، وأبان عنه رسول الله صلوات الله عليه، خاليًا من البدعة والخرافة، بعيدًا عن الأضاليل والأوهام.

وفي هذا السبيل يحب أن يبدل كل مسلم في كل ناحية من الأرض جهده الكامل، حتى تتساقط هذه الجهود، وتلتقي لترفع من هذا البنيان الشامخ.

••••

وعندما أصدر الأستاذ الفاضل الشيخ علي يحيى معمر الحلقتين الأوليين من كتابه القيم: «الإباضية في موكب التاريخ»¹²³؛ فكتب الحلقة الأولى عن نشأة الإباضية¹²⁴، والحلقة الثانية عن الإباضية في ليبيا؛ مهد بذلك الطريق أمام هذا الفريق من المسلمين ليقوم بدوره في هذا الجهاد في سبيل الله، وتحكيم دينه وإعلاء كلمته.

فالحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها: أن المسلمين في حاجة إلى التعارف الكامل في هذا العصر الذي تيسرت فيه وسائل اللقاء، وفي حاجة لأن يطلعوا جميعًا على الحق الذي حمل كل فريق منهم جانبًا منه، أو حمله كله، وحفظه وصانه على مدى التاريخ.

وقد حمل «الإباضية» الرسالة الإسلامية صحيحة كاملة، كما جاء بها كتاب الله وهدى رسول الله ﷺ، وحفظوا هذا الدين - حيث وجدوا - سلبًا من البدعة والخرافة، بعيدًا عن التزييف والتحريف، في مجتمع مسلم كان يعاني كثيرًا من تنكر جيرانه من المسلمين فيما مضى من التاريخ، عندما كانت الأهواء حكما في دين الله، وعندما كان السلطان والجبروت وطلب

123- نشرة: مكتبة وهبة بالقاهرة سنة 1384هـ. ويصدر الكتاب في عدة حلقات عن الإباضية في كل بلادهم.

124- معظم الذين كتبوا عن الإباضية - عدا الإباضية أنفسهم - يعتبرونهم فرقة من فرق الخوارج، وهو خطأ محض احتلقتة الدعاية السياسية الأموية، وأكدته كتب الفرق من بعد، وفي هذا الخطأ وقع كل من كتب عنهم، وقد عقد الشيخ علي معمر فصلاً خاصاً في كتابه عن الخوارج في نظر الإباضية. وستطرح قريباً - إن شاء الله - رسالة في الموضوع للشيخ إبراهيم اطفيش.

الدنيا همًا وهدفًا للمنحرفين من الحكام المُتسلطين.

وإذا قام «الإباضية» بواجبهم في حفظ هذا الدين في مجتمعاتهم حتى هذا اليوم سليماً صحيحاً - فحفظهم الله به - فإن عليهم اليوم أن يقوموا بواجبهم لتعريف إخوانهم المسلمين في كل مكان بالهدى الذي معهم، والذي حفظته لهم سير رجالهم، ومؤلفات أئمتهم في كل العصور، وذلك حتى تزول تلك النظرة الغائمة التي خلفها ماضي المسلمين بين جماعاتهم، وحتى يشتد ساعد الجماعات الإسلامية المُجاهدة اليوم بما تجده عندهم من الفهم الصحيح لقواعد الإسلام، والإدراك السليم لأسرار تشريعه، والقيام الجاد على تحكيمه في حياتهم.

والسبيل إلى تحقيق هذا الهدف - مع الصورة الناصعة التي يعطيها المجتمع الإباضي اليوم في معظم بلدانه للمجتمع الإسلامي النظيف - هو الاتجاه إلى نشر التراث الإسلامي الخصب الذي أنتجته قرائح علمائهم على مر العصور؛ فقد تركوا - رحمهم الله - ثروة لا نظير لها، سواء في المشرق (عمان وزنجبار) أو في المغرب (ليبيا وتونس والجزائر).

«وقد اشتهر علماء جبل نفوسة بطول الباع في العلوم والتأليف، وامتلات الخزائن في عصور مديدة بمؤلفاتهم، في سائر العلوم العقلية والنقلية والرياضية، ما يصح أن يقال إنها أغزر مادة من الأندلس بدون مبالغة».

«ولم يمر عصر منذ القرن الثاني للهجرة، إلا وتجد من مؤلفات علمائه ما يبهر العقول، وبين أيدينا اليوم ما يدل على تلك الذخائر الهائلة؛ كـ (ديوان الأشياخ) الذي ألفه سبعة من العلماء في خمسة وعشرين جزءاً، و(ديوان العزابة) الذي ألفه عشرة من الفقهاء، وكل منهما يُعتبر دائرة معارف فقهية، وناهيك بتأليف قد اجتمع على تحريره هذا العدد من العلماء الأجلاء».

ومن هنا (الإيضاح) الذي هو مُعتمد الأصحاب في الفتوى بالمغرب، إذ هو كثيراً ما يجمع الفرع إلى أصله. و(قواعد الإسلام) للعلامة المُجتهد جمال الدين الشيخ إسماعيل بن موسى الحيطالي. فكل من الكتابين في المرتبة

العُلَمَاءِ مِنَ الْإِحَادَةِ وَالتَّحْقِيقِ، وَكُلِّ مِنَ الْمُؤَلَّفِينَ فِي الدَّرَجَةِ الْقُصْوَى مِنَ الْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّدْقِيقِ وَالْإِحَادَةِ».

ومما يُصَوِّرُ انْتِشَارَ الْعِلْمِ فِي جَبَلِ نَفُوسَةٍ وَشِدَّةَ اهْتِمَامِ أَهْلِهِ بِهِ: مَا قَالَهُ الْبَدْرُ الشَّمَاخِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «اِحْتَوَى جَبَلُ نَفُوسَةٍ عَلَى الْكِرَامَاتِ وَكَثْرَةِ الصَّالِحِينَ وَالْعُلَمَاءِ مَا لَا يُوجَدُ بَعْدَهُ، حَتَّى إِنَّهُ بَلَغَ فِي بَعْضِ الْأَزْمَنَةِ إِلَى أَنَّهُ لَا تَحْتَاجُ فِيهِ قَرْيَةٌ إِلَى قَرْيَةٍ لِلْفَتْيَا؛ عَدَا جَنَازُونَ وَوَيْعُونَ وَتَنْدَمِيرَةٌ: لَا تَحْتَاجُ فِيهَا دَارٌ إِلَى دَارٍ لِلْفَتْيَا!!». وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ جَنَازُونَ وَحَدَّهَا اجْتَمَعَ فِيهَا سَبْعُونَ عَالِمًا جَلِيلًا أَيَّامَ وَايَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ عَبْدِ الْحَمِيدِ عَامِلِ الْإِمَامِ الرَّسْتَمِيِّ عَلَى نَفُوسَةٍ».

وَنَحْنُ نَقْدُمُ الْيَوْمَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ عِلْمًا مِنْ هَوْلَاءِ الْأَعْلَامِ، وَكِتَابًا مِنْ هَذِهِ الْكِنُوزِ الْمَذْخُورَةِ، وَنَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ تَتِمَّ هَذِهِ الْبِدَايَةُ، فَيَعْرِفَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى كُلِّ هَوْلَاءِ الْأَعْلَامِ، وَيَطَّلِعُوا عَلَى جَمِيعِ هَذِهِ الذِّخَائِرِ، فَيَكُونَ الْإِبَاضِيَّةُ بِذَلِكَ قَدْ أَحْيَا جِهَادَ أُمَّتِهِمْ، وَأَبْرَأُوا ذِمَّتَهُمْ بِمَا بَلَّغُوا مِنْ دِينِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَبِمَا نَشَرُوا مِنْ تَرَاثِ الْإِسْلَامِ.

•••••

وَإِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي الْمَكْتَبَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْيَوْمَ يَلْمَحُ أَلْوَانًا غَرِيبَةً مِنَ الثَّقَافَةِ الْمُسْتَوْرَدَةِ - قَدِيمَةً وَحَدِيثَةً - تُزَاحِمُ التَّرَاثِ الْإِسْلَامِيَّ الْأَصِيلَ، وَتَنَارِعُهُ عَلَى أَدْهَانِ الْمُسْلِمِينَ وَعُقُولِهِمْ وَأَذْوَاقِهِمْ.

وَالشَّخْصِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْأَصِيلَةُ الْمُتَمَيِّزَةُ - الَّتِي لَنْ تَقُومَ لِلْمُسْلِمِينَ قَائِمَةٌ بِدُونِهَا - لَنْ تَنْبَنِي بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ عَلَى هَذَا الْخَلِيطِ الْغَرِيبِ مِنَ الثَّقَافَاتِ الْمُتَبَايِنَةِ، وَالَّتِي أَصْبَحَتْ تَجِدُ الْمَجَالَ الْوَاسِعَ فِي مَكْتَبَاتِنَا وَمَجَلَّاتِنَا وَمَحَامِعِنَا الْعِلْمِيَّةِ، بَلْ وَتَجِدُ الْمَبَالِغَ الطَّوِيلَةَ مِنْ أَمْوَالِنَا تُنْفَقُهَا لِإِخْرَاجِهَا أَنْبَقَةً مُحَبَّبَةً إِلَى نَفْسِ أُنْبَاتِنَا، وَهِيَ تَحْمِلُ بَيْنَ صَفْحَاتِهَا السَّمَّ الرَّعَافِ، وَالشَّرَّ الْمُسْتَحْكِمِ، وَالضَّلَالَ الْمُظْلِمِ.

وَالذُّوقُ الْإِسْلَامِيُّ الْأَصِيلُ الَّذِي يُكَوِّنُ الشَّخْصِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْمُتَمَيِّزَةَ إِنَّمَا يَنْضَحُ وَيَتَجَلَّى عِنْدَ هَوْلَاءِ الْكُتَابِ الَّذِينَ تَخَرَّجُوا فِي رِيَاضِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ،

وَهَدَى الرَّسُولَ الْعَظِيمَ، وَسِيرَةَ الْمَدْرَسَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأُولَى، وَهَدَّبَتْ نَفُوسَهُمْ وَصَفَلَتْهَا عِبَادَةُ اللَّهِ وَخَشْيَتُهُ وَتَقْوَاهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ.

إِنَّ هَذَا الطَّرَازَ مِنَ الْكُتَابِ الَّذِينَ يَصْدُرُونَ فِيهَا يَكْتُبُونَ عَنْ فَهْمِ حَقِيقَتِي وَنُظَيْفِ الْإِسْلَامِ صَارُوا مِنَ النُّدْرَةِ بَحِيثُ يَضْعُبُ أَنْ يَتَجَاوَزَ عُدَّتَهُمُ الْعَشْرَاتُ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَلَكِنَّهُمْ فِي تَارِيخِنَا الْمُنْتَطَاوِلِ كَثْرَةٌ كَثِيرَةٌ، لَكِنَّهَا مَعْمُورَةٌ مَجْهُولَةٌ قَدْ حِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ جِيلِنَا الْحَاضِرِ.

وَفِي لِيَبِيَا - هَذَا الْوَطَنِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَرِيقِ - الَّذِي ضَرَبَ أَرْوَاحَ أَمْثَلَةٍ الْبُطُولَةِ فِي جِهَادِ الْكُفْرِ وَأَجْنَادِهِ؛ إِنَّمَا قَامَ بِذَلِكَ الدَّوْرَ الرَّائِعِ الْعَظِيمِ مَدْفُوعًا بِالرُّوحِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُسْتَعْلِيَّةِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الدَّلَّةَ، وَلَا تَسْتَكِينُ لِلْعُدُونِ، وَلَا تَسْكُنُ لِلظُّلْمِ، وَالَّتِي حَفِظَهَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ الْمُخْلِصُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَدُعَاتِهِ.

كَانَ ذَلِكَ وَاضِحًا جَلِيلًا؛ سِوَاءَ فِي جِهَادِ الرَّايَةِ الَّتِي حَمَلَهَا الْبَارُونِيُّ وَالسُّوَيْحَلِيُّ وَإِخْوَانُهُمْ، أَوْ فِي الرَّايَةِ الَّتِي رَفَعَهَا السَّيِّدُ أَحْمَدُ الشَّرِيفُ وَإِخْوَانُهُ مِنْ جُنْدِ الْإِسْلَامِ الْمُجَاهِدِينَ، عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللَّهِ جَمِيعًا.

وَقَدْ لَحِقَ هَذَا الْوَطَنَ الْحَبِيبَ مَا لَحِقَ إِخْوَتَهُ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ «الْوَطَنِ الْإِسْلَامِيِّ» مِنْ مُؤَامِرَاتٍ خَبِيثَةٍ مُحْكَمَةٍ؛ هَدَفُهَا إِفْسَادُ هَذِهِ الْأَصَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي سُلُوكِهِ وَذَوْقِهِ وَفِكْرِهِ، حَتَّى تَتَمَيَّعَ الشَّخْصِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الصَّلْبَةُ الَّتِي قَاوَمَتْ مُؤَامِرَاتِ الصَّلِيبِيَِّّةِ بِصُمُودٍ وَإِصْرَارٍ لَا نَظِيرَ لَهُمَا.

وَظَلَّ ذَلِكَ الْعُدُونُ - طَوِيلًا - لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبَالَ مِنْ تِلْكَ الْقَلْعَةِ الشَّمَاءِ الْمُسْتَنْعَةِ، وَالَّتِي وَإِنْ غَلِبَتْ عَلَى أَمْرِهَا، وَتَسَلَّطَ الْكُفْرُ عَلَى أَرْضِهَا زَمَنًا؛ فَإِنَّ رُوحَهَا ظَلَّتْ طَلِيقَةً حُرَّةً تَرْفُرُ فِي أَجْوَاءِ الْإِسْلَامِ الصَّافِيَةِ النُّظِيفَةِ.

غَيْرَ أَنَّ الْمُرَاقِبَ لِلْفِكْرِ فِي هَذَا الْوَطَنِ يَلْمَحُ الْخَطَرَ يَزْحَفُ فِي غَيْرِ مَا رَحْمَةً عَلَى أَجْيَالِنَا النَّاشِئَةِ، لِيَلْحَقَ بِهَا إِلَى الرَّكْبِ الْمُنْحَرِفِ إِلَى الْهَآوِيَةِ السَّحِيقَةِ، الَّتِي يُعْدهَا لَهُ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ بِجَمِيعِ أَشْكَالِهِمْ.

•••••

والواجب الأول على هذا الجيل المسلم الناشئ: أن يدرك أنه على مفارق الطريق، وأنه بين طرفين متميزين؛ لكل وجهته وحدوده: طريق الإسلام وطريق الكفر، فمآذ بعد الحق إلا الضلال!؟

وواجب على هذا الجيل أيضاً أن يعرف أن وسائل أعداء الإسلام في تعمية السبيل أمامه كثيرة ومتشعبة وخبيثة، وأن عليه - ليسلم من حبالها وأشراكها - أن يعتصم بإسلامه اعتصاماً كاملاً عقيدة وسلوكاً وفكراً، وأن يتخذ الوسائل لذلك في عزم وتصميم وبدون تردد، وهو عندما يتبين طريقه الصحيح، ويتبع دينه القويم، وينهج منهج الحق؛ صائر بحول الله إلى ما وعد الله جنده من النصر والعزة.

يجب على هذا الجيل أن يتخذ أهنته للمعركة بتحصين نفسه عن كل فكر غريب عن دينه، وكل تصور دخيل عليه، وكل شبهة مأكرة تحاول زعزعته، وأن يكون على حذر من كل أعداء الإسلام المتمثلين في أجهزة اليهودية الماكرة، والصليبية المتعصبة العبيدة، التي لا تكف عن ابتكار الوسائل لهدم الإسلام وتخطيمه، سواء بما تزوجه في أوطان الإسلام من أنماط حياتها وحضارتها، أو بما يجد طريقه إلى مدارسنا وجامعاتنا من تفكير زائغ منحرف عن الله، أنبتته تصوراتهم الكسيحة، وحمله إلى أرضنا عملاء لهم من أبنائنا، فهم يقومون بدور الابن الحاقد العاق، وهم كذلك أشبه بما يسمونه «الطابور الخامس» الذي يعرف زحف الجيش، ويشيع فيه الفوضى والاضطراب.

أو فيما يتخذ به أبناء هذا الجيل مما يسود العالم من نظريات وأفكار جاهلية ملحدة هدامة، وهم غير محصنين بفهم دينهم، ومعرفة دورهم الذي تنتظره البشرية من أمثالهم ممن يحملون هدى الله سبحانه ورسالته.

وفي هذا الصراع المرير - الذي تكبر ناره المخططات اليهودية العالمية المتنوعة التي تسعى لدفع البشرية جميعها إلى متاهات من الشقاء والفوضى، حتى ترجع منهوكة مكدودة مستسلمة يائسة، والذي تزيده أواراً عصية الصليبية العمياء الحاقدة - يجب أن ينطلق في هذا الصراع «جيل إسلامي»

بمعنى هذه الكلمة، فيحقق الوجود الإسلامي الذي يجسم الإسلام سيرة وعقيدة وحياء، حتى تلمس فيه البشرية المكدودة اليوم أملاً حقيقياً واقعياً يُفقد ما تعانیه من الشقاء في بيءائه التيه.

وإن من أهم جوانب الإعداد التي تميز هذا الجيل وتؤكد حقيقته: جانب الثقافة؛ وهو أخطر ما يواجه الجيل المعاصر، لما يعانیه هذا الجانب من غزو مُحكم نفذ إلى جميع مراكزه، فلم يسلم منه إلا القليل من قادة الفكر، الذين صفي فكرهم ودوقهم وإيمانهم من كل كدر وعيش.

ومن هذا القليل الركي المبارك، مع ذلك التراث الغني الزاخر في المكتبة الإسلامية يجب أن تنبني ثقافة الجيل المسلم الذي يحقق الوجود الإسلامي الحق، والذي تزوجه لحمل راية الإسلام عالية من جديد، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

والذي حفظ على الأمة الإسلامية - في جميع أجزاء الوطن الإسلامي - شخصيتها وروحها على طول تاريخ الإسلام المجيد: قادة أئمة مجاهدون؛ حملوا عبء الجهاد في سبيل الحق حينما وجدوا، فكان نتيجة جهادهم ذلك هذا البناء الشامخ العجيب، الذي ظل يعاند كل مؤامرات الأعداء في ثبات واستعلاء وشموخ.

وفي كل ركن وكل طريق ارتفعت المشاعل شعللة إثر شعللة؛ تنير الطريق للمُلاحين على مر الأيام، وفي كل وطن كان دعاة وعلماء ومجاهدون، دعّموا راية الإسلام وأعلوها، وساهموا في تركيزها...



1. من كتابات النامي (مقدمة)

ب) مُقَدِّمَةُ النَّامِيِّ عَلَى كِتَابِ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ.

بَدَأْتُ صِلَتِي بِكِتَابِ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ لِلوَارِجَانِيِّ عِنْدَ اشْتِغَالِي عِنْدَ اشْتِغَالِي بِتَحْقِيقِ كِتَابِ الْقِنَاطِرِ لِلحَيْطَالِيِّ سَنَةَ 1963م . قَرَأْتُ فِي تَرْجَمَةِ الحَيْطَالِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَحْفَظُ وَيُدْرُسُ كِتَابَ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ فِي أَصُولِ الفِقهِ فِي ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ...

وَقَدْ تَعَلَّقْتُ بِالكِتَابِ لِانعدامِ كُتُبِ هَذَا الفَنِّ فِي المَكْتَبَةِ الإِباضِيَّةِ، وَكُنْتُ دَائِمًا البَحْثُ عَنْهُ فِيمَا أُبْحَثُ عَنْهُ مِنْ كُتُبِ التَّرَاثِ؛ حَتَّى يَسَّرَ اللَّهُ وَصَادَفْتُ نَسْخَةً مِنْهُ عِنْدَ أَحِينَا فِي اللَّهِ الدَّاعِيَةِ المُوَمِّنِ الأَسْتَاذِ المَهَادِي الحَاجِّ إِبْرَاهِيمِ، فَقَدْ التَقَيْتُ بِهِ فِي جَرِيَّةٍ، وَعَلِمَ بِاهْتِمَامِي بِالكِتَابِ وَشِدَّةِ تَعَلُّقِي بِهِ، وَكَانَتْ لَدَيْهِ نَسْخَةٌ مِنْهُ قَدْ أَعَارَهَا إِلَى الأَسْتَاذِ الصَّادِقِ بِنِ مَرْزُوقِ، فَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يُسَلِّمَهَا لِي، وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةَ 1968م.

وَمِنْ ذَلِكَ الحِينِ وَأَنَا عَلَى صِلَةٍ وَثِيْقَةٍ بِهَذَا الكِتَابِ مُطَالَعَةً وَدِرَاسَةً، ثُمَّ شَغَلَتْ نَفْسِي بِإِعْدَادِ هَذَا الكِتَابِ وَتَحْقِيقِهِ مِنْذُ أوَائِلِ السَّبْعِينَاتِ، وَلَمْ تَكُنْ أَيَّامِي طَوَالَ هَذَا الوَقْتِ عَلَى وَبَرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الاسْتِقْرَارِ، فَقَدْ شَغَلْتَنِي أُمُورٌ مُتَشَعِّبَةٌ عَنِ التَّفَرُّغِ الكَامِلِ لِلعِلْمِ وَالدِّرَاسَةِ، عَلَى أَنَّ رَفِيقَتِي لِهَذَا الكِتَابِ لَمْ تَنْقَطِعْ حَتَّى فِي أَضْعَبِ الظُّرُوفِ وَأَشَدِّهَا، وَأَنَا أَجِدُ نَفْسِي مَدْفُوعًا دَائِمًا إِلَى تَقْدِيمِهِ عَلَيَّ غَيْرِهِ مِنَ الأَعْمَالِ وَالمِهَامِ، وَكَمَا أَنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ [كَذَا] فَلِكُلِّ كِتَابٍ أَجَلٌ، وَهَذَا أَوَانِ فِرَاقِي مِنْ إِعْدَادِهِ لِلنَّشْرِ.

وَكَانَ العَزْمُ أَنَّ أَضَمَّنَهُ مُقَدِّمَةً مُوسَّعَةً عَنِ الكِتَابِ وَالمُؤَلِّفِ، ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّ

• عَزَّوْتُ عَلَى نَسْخَةٍ مَرْقُومَةٍ بِالأَلَةِ الكَاتِبَةِ مِنْ هَذِهِ المُقَدِّمَةِ فِي إِرْشِيفِ مَكْتَبِ الإِفْتَاءِ بِوِزَارَةِ الأَوْقَافِ وَالشُّوُونِ الدِّيْنِيَّةِ بِسُلْطَنَةِ عُمَّانِ، وَقَدْ طَلَّتْ مَفْقُودَةً مَدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، لِذَا رَأَيْتُ نَشْرَهَا هُنَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ؛ حَوْفًا عَلَيْهَا مِنَ الضِّيَاعِ، لَعَلَّ اللَّهَ يَقْبِضُ مَنْ يَبْنِي عَلَى عَمَلِهِ هَذَا وَيُكْمِلُهُ. وَلَمْ أَتَصَرَّفْ فِيهَا بِشَيْءٍ سِوَى مَحْذَفِ المَوَاصِفَاتِ الدَّقِيقَةِ لِلْمَخْطُوطَاتِ الَّتِي اعْتَمَدْتُهَا فِي التَّحْقِيقِ. وَكُلُّ مَا وَرَدَ فِي هَامِشِهَا مِنْ تَعْلِيقَاتٍ فَهِيَ لِلنَّامِيِّ.

ذَلِكَ إِنَّ وَقْفِيَّتَهُ حَقَّهُ خَرَجَ عَنِ حَجْمِ المُقَدِّمَةِ إِلَى كِتَابِ مُسْتَقَلٍّ، وَأَنَّ أَيَّ شَيْءٍ غَيْرَ ذَلِكَ تَقْصِيرٌ مُخِلٌ، فَأَثَرْتُ أَنَّ التَّرِيمَ بِتَحْضِيرِ دِرَاسَةٍ تَفْصِيلِيَّةٍ عَنِ المُوَلِّفِ وَالكِتَابِ فِي غَيْرِ هَذَا المَكَانِ، وَأَمَلِي فِي اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُيسِّرَ لِي ذَلِكَ، وَأَنْ يَجْعَلَ البَرَكَةَ فِي جِهْدِي وَوَقْفِي حَتَّى أَقُومَ بِهِ وَبِغَيْرِهِ.

أَمَّا الكِتَابُ فَهوَ غُرَّةٌ مِنَ العُرْرِ فِي مَوْضُوعِهِ، وَهُوَ إِنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ كُتِبَ الأَصُولِ فِي المَكْتَبَةِ الإِسْلَامِيَّةِ - لِمَا يَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ اتِّسَاقِ التَّبْوِيبِ، وَدَقَّةِ التَّفْصِيلِ، وَاسْتِقْصَاءِ البَحْثِ، وَاسْتِجْمَاعِ الأدْلَةِ، وَبَرَاعَةِ البَيَانِ، وَجَمَالَ العِبَارَةِ، وَسُهُولَةِ التَّنَاوُلِ - فَإِنَّهُ فِي صَدَارَةِ تِلْكَ الكُتُبِ بَدُونَ شَكٍّ، وَسَيُذَكَّرُ القَارِئُ أَنَّ هَذَا الكَلَامَ بَعْضُ حَقِيقَةِ هَذَا الكِتَابِ الجَلِيلِ.

وَهَذَا الكِتَابُ مِنْ أَجْلِ مَا أُلْفَ فِي مَوْضُوعِهِ عِنْدَ قُدَمَاءِ إِباضِيَّةِ المَغْرِبِ¹²⁵، وَقَدْ احْتَفَلْتُ بِهِ الدَّوَائِرُ العِلْمِيَّةُ عِنْدَ الإِباضِيَّةِ تَدْرِيسًا وَشَرْحًا وَتَعْلِيقًا، فَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ الإِمَامَ الحَيْطَالِيَّ (مُتَوَفَى سَنَةَ 750هـ) كَانَ يَحْفَظُهُ بِكاملِهِ وَيُدْرُسُهُ، وَكَتَبَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ البِرَّادِيُّ (مِنْ عُلَمَاءِ القَرْنِ الثَّامِنِ لِلهَجْرَةِ) شَرْحًا دَقِيقًا عَمِيقًا، وَلَمْ يَتِمَّهُ، وَاحْتَصَرَهُ البَدْرُ الشَّمَاخِيُّ وَوَضَعَ شَرْحًا عَلَى اخْتِصَارِهِ.

وَنَحْنُ بِتَقْدِيمِهِ لِلنَّشْرِ اليَوْمِ نُحَسُّ أَنَّ نُثْرِي المَكْتَبَةَ الإِسْلَامِيَّةَ فِي أَهَمِّ مَجَالَاتِ الدِّرَاسَةِ المُتَخَصِّصَةِ. وَمَجَالَ أَصُولِ الفِقهِ مَجَالَ بَالِغِ الأَهْمِيَّةِ شَدِيدِ الحَيَوِيَّةِ، حَيْثُ يَرِسمُ لِلفِقهِ الإِسْلَامِيِّ مَنهَجَهُ المُحَكَّمِ فِي مَوَاجِهَةِ مَشَاكِلِ الحَيَاةِ مِنْ خِلَالِ مَوَازِينِ الإِسْلَامِ المُحَكَّمَةِ الدَّقِيقَةِ، وَمِنْ خِلَالِ أَصُولِهِ الوَاضِحَةِ الثَّابِتَةِ، وَهُوَ مِنْ أَجْلِ المِيادِينِ الَّتِي حَفَظَتْ لِلإِسْلَامِ شَخْصِيَّتَهُ وَاسْتِقْلَالَه، وَأَمَدَّتْهُ بِمَنْهَجِهِ الثَّابِتِ فِي تَقْرِيرِ أَحْكَامِهِ.

وَإِذَا كَانَتْ أَصُولُ هَذَا العِلْمِ قَدْ ظَهَرَتْ فِي صُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْذُ ظُهُورِ الرِّسَالَةِ وَنُزُولِ الوَحْيِ، وَشَهِدَ الصِّدْرُ الأَوَّلُ صُورًا عَدِيدَةً لِتَطْبِيقَاتِهَا العَمَلِيَّةِ؛ فَإِنَّ الإِمَامَ الَّذِي أَرَسَى قَوَاعِدَهَا وَقَنَّ أَصُولَهَا وَدَوَّنَهَا فِي كِتَابِ هُوَ: مُحَمَّدٌ

125- ظَهَرَ قَبْلَ الآنِ كِتابٌ جَلِيلٌ فِي أَصُولِ الفِقهِ، عَلَى طَرِيقَةِ المَذْهَبِ الإِباضِيِّ، لِمُؤَلِّفِ حَدِيثٍ وَهُوَ إِمَامٌ عُلَمَاءُ عُمَّانِ المَرْحُومِ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ السَّلْمِيِّ، بِعَنْوَانِ: (شَرْحُ طَلْعَةِ الشَّمْسِ) وَاعْتَمَدْتُهُ مَشْتَبِحَةً الأَزْهَرِ لِلتَّدْرِيسِ فِي تِلْكَ الجَامِعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ العَرَبِيَّةِ لِبَعْضِ الوَقْتِ، وَطُبِعَ عَدَّةُ مَرَّاتٍ.

بن إدريس الشافعي في كتاب «الرسالة»¹²⁶. ومُنذ ذلك الحين تَوَاصَلَ مَدَدُ أعلام الإسلام لهذا الحقل الهام، وظَهَرَتْ موسوعاتٌ قيِّمةٌ في هذا العلم؛ كإحكام ابن حَزَم وإحكام الأمدي ومُستصفي الغزالي ومُوافقات الشاطبي وأعلام الموقعين لأبن قَيِّم وغيرُها كثيرٌ، فَبَسَطَ كُلُّ مَنْ هُوَ لاءِ العلماءِ أصوله على طريقة مذهبه وأسلوب أتمته وشيوخه، وتكوَّنت من ذلك المَجْمُوع مكتبةٌ عامرةٌ واسعةٌ من جميع المذاهب الإسلامية.

وقد كان الحال بالنسبة للفقهاء الإباضي كذلك، فقد كانت قواعدُ أصول الفقه إحدى أدوات العلم التي لا يتمُّ تكوينُ العالم ولا يَسْتَحْكَمُ أمره إلا بها، وكانت سليقةً في تكوين العالم ومَنْ يتصدَّى لِلإفتاء، شأنها شأن سليقة البَيَّان، وتناثرت شذراتُ منها في أقدم الدواوين عند الإباضية، مثل مُدَوِّنة أبي غانم الخراساني وغيرها من الكتب الأولى التي تُنسبُ إلى مؤسسي هذا المذهب من أمثال جابر بن زيد، وأبي عُبيدة مُسلم بن أبي كريمة، والرَّبيع بن حبيب، وعبدالله بن عبدالعزيز، وأبي المورج وغيرهم.

وأقدمُ ما وَصَلَ إلينا من مُصنَّفات المغاربة في هذا الموضوع: كتابُ «التَّحْفِ المَخْرُونة والجواهر المصونة» لأبي الرَّبيع سليمان بن يَحْلَف (متوفى سنة 471هـ) في جزأين، وهو مزيجٌ من بُحوث أصول الفقه وأصول الديانات.¹²⁷

وتذُكُر بعضُ المصادر تصنيفًا آخَرَ في هذا الفنَّ للشيخ تَبْعُورين بن عيسى، ولكنَّ لَمْ يَصَلْ إلينا مع الأسف، فكتابنا هذا يأتي في الترتيب الزمني بعد كتاب أبي الربيع سليمان بن يَحْلَف بِقَرْنٍ من الزمان، ولكنه يَبْزُهُ وَيُوقِفُهُ في كلِّ وَجْهٍ، وهو يستفيدُ منه وينظرُ إليه في كثيرٍ من مسائله ويُحوِّثه.

ومؤلَّف الكتاب هو الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن مناد الوارجلاني السُّدْرَاتِي، عاش في السبعين الأولى للقرن السادس الهجري،

126- حَقَّقَهَا تَحْقِيقًا علميًا ونَسَرَّهَا المرحومُ الأستاذُ أحمدُ مُحَمَّدُ شاكِر، وتُرجمَها إلى الإنجليزية الدكتورُ مجيدُ خَلدُوري.

127- تَوَجَّدَ لدينا مخطوطاتٌ من هذا السُّفَرِ النفيس، ونَحْنُ بصددِ تَحْقِيقِهِ وإعداده للنشر.

وتوفِّي سنة 570هـ.¹²⁸ دَرَسَ في وارجلان، وكان أهمُّ شُيوخه فيها: الشيخُ أيُّوبُ بن إسماعيل، وقد رَأَاهُ في قصيدة طويلة، والشيخُ أبا عَمَّار عبد الكافي، والشيخُ يَحْيَى بن أبي زكريا. ورَحَلَ في شبابه إلى قرطبة حاضرة الأندلس، ودَرَسَ فيها عُلُومَ اللسان والتفسير والحديث والتنجيم وغيرها.

وكان كثيرَ السُّفَرِ والترحال، وَزَعَ رحلاته على طلب العلم وعلى الاتِّجار، شأنَ أهله سُكَّان وارجلان. وقد أَمْضَى بقيةَ حياته في وارجلان مشغولًا بالعلم والتدريس والتأليف، وذكرَ الشُّمَّاخِي أنه اعتَكَفَ مُدَّةَ سَبْعِ سنواتٍ لَيْسَ لَهُ هَمٌّ إلا التأليف والنسخ والاشتغال بشؤون الكتاب وما يتعلق به.

وقَد تَرَكَ تَرَوَةً هائلةً من المؤلفات؛ فُقدَ بعضُها، ولا يزال عَدَدُ صالحٍ منها موجودًا؛ وهذه قائمةٌ مؤلفاته:

(1) التفسير: وهو مَقْفُودٌ مع الأسف، وقد ضَاعَ بِفَقْدِهِ عِلْمٌ غزيرٌ وَخَيْرٌ وفيرٌ، وبقيَ لنا من وَصْفِهِ ما ذَكَرَهُ البِرَّادِيُّ في جَواهِرِهِ، قال: «رَأَيْتُ مِنْهُ في بلاد أربَعِ سَفَرًا كبيرًا؛ لَمْ أَرِ وَلَا رَأَيْتُ قَطُّ سَفَرًا أَضَحَمَ مِنْهُ وَلَا أَكْبَرَ مِنْهُ، وَحَزَرْتُ أَنَّهُ يُجَاوِزُ سَعَمَةَ وَرَقَةَ أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ، فيه تفسيرُ الفاتحة والبقرة وآل عمران، وَحَزَرْتُ أَنَّهُ فَسَّرَ الْقُرْآنَ في ثَمَانِيَةِ أَسْفَارٍ مثله، فَلَمْ أَرِ وَلَا رَأَيْتُ أَتْلَعُ مِنْهُ وَلَا أَشْفَى لِلصُّدُورِ في لُغَةٍ أَوْ إِعْرَابٍ أَوْ حُكْمٍ مُبِينٍ أَوْ قِرَاءَةٍ ظَاهِرَةٍ أَوْ شَادَّةٍ أَوْ نَاسِخٍ أَوْ مَنْسُوخٍ أَوْ في جَمِيعِ الْعُلُومِ». وقال الشُّمَّاخِي: «ورَأَيْتُ لَهُ بَعْضَ تَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ، أودَعَهُ أَنْوَاعَ الْعِلْمِ من القراءة واللغة والنحو والتصريف والحجج وغيرها».¹²⁹

(2) كتابُ التاريخ أو «فُتُوحُ المَغْرِبِ»: وهو مَقْفُودٌ. قال الشيخُ أبو البيظان إبراهيم رحمه الله في رسالة عن أبي يعقوب: «ومِمَّا بَقِيَ في حَفْظِي عنه ما قَصَّ عَلَيَّ عَنْهُ وأنا بتونس في غُضُونِ سنة 1914هـ أستاذنا حَسَنُ حُسْنِي عبد الوهاب؛ أستاذنا في التاريخ بالمدرسة الخلدونية قال: إن له (أي للوارجلاني) كتابًا كبيرًا في التاريخ يُسَمَّى فتوح المغرب، رأيتُ نسخةً منه

128- الشماخي؛ السير: 443.

129- الشماخي؛ السير: 443.

في تركة المستشرق الفرنسي الكبير مسيو منتسكيو. ثم قال: ويوجد ذلك الكتاب فتوح المغرب الآن في بعض خزائن ألمانيا».¹³⁰

(3) ترتيب مُسنَد الربيع بن حبيب: رتب فيه مُسنَد الربيع بن حبيب، وأضاف له روايات ضمام، وهو المتداول الآن، وطبع عدة مرات.

(4) شرح أسماء رجال المسند: وقد ذكره الشماخي والبرادي، وهو مفقود مع الأسف.

(5) كتاب الدليل والبرهان: في علم الكلام والمنطق، ثلاثة أجزاء، وطبع طبعة حجرية بالقاهرة، وتوجد منه مخطوطات عديدة.

(6) وذكر الشماخي عن بعض الطلبة أنهم رأوا له كتاباً في الفقه.

(7) أجوبة متعددة لرسائل من مختلف البلاد، من إفريقية وغانة وجبل نفوسة.

(8) وله ديوان شعر، ولم يبق منه غير قصيدتين:

أ. الحجازية، وسجل فيها رحلته إلى الحج.

ب. مرتبته في أستاذه أبي سليمان إسماعيل بن أيوب.

وتكشف لك هذه القائمة المتنوعة من التأليف عن سعة باعه وعلو كعبه في العلوم، ومساهمته الكبيرة في مختلف مجالات المعارف المطروقة في وقته.

وخلاصة القول فيه أنه إمامٌ مجتهدٌ مُطلقٌ، مستقلٌ الشخصية، قويُّ الحجّة، واسعُ الأفق، دقيقُ النظر، عميقُ الفهم، نافذُ البصيرة، قيضه الله مناراً للعلم، فأحيا آثاره وجدّد معالمه، وفتح فيه آفاقاً واسعة رحبة، نرجو أن نوفيها حقها من العرض والدراسة في كتابنا الذي نعدّه عن أبي يعقوب الوارجلاني وأثره في الدراسات الإسلامية.

■ نسخ العدل والإنصاف:

يذكر عن المؤلف أنه كان شديد الاحتفال بكتبه، قال أبو العباس الدرّجيني: «حدّثني الثقة أنه وقف على سبع نسخ من كتاب العدل بخطه أو ثمان، فأما أنا فرأيت ثلاثاً».

أما البرادي فقد رأيت في شرحه يكثر الشكوى من النسخ المساخ، ويقف في مواضع كثيرة على صور ذلك التحريف فيما بين يديه من نسخ الكتاب، وهو يذكر أن جميع ما رآه من نسخ العدل «متفق في الإشكال، فما أشكل في واحدة أشكل في الجميع». قال: «فاستغرقت تاريخ النسخ، وفحصت عن النسخ، فتوهّمت أن جميعها مُستكّبة من نسخة واحدة، وهي الأم وهنّ بنات ذرية بعضها من بعض، والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم، فتوهّمت أن أول نسخة وقعت في هذا الأفق نسخة بيد الشيخ الأجل أبي عمرو ميمون بن بيتس الورع عمي الغفولي الساكن ببلد أبديلان، المقدم المدرّس بالمسجد الكبير، وهو قاده بها، أعني بجزيرة حرّسها الله، وقد كتبت هذه النسخة من خط المؤلف رحمه الله سنة ثلاثين بعد ستمئة ببلد درّجين...» إلى أن قال: «فصارت أمّا لجميع أو لأكثر النسخ الموجودة في هذه الجهات، وهنّ بناتها، فما أشكل فيها أشكل في جميعهنّ، وما صحّ فيها صحّ في جميعهنّ».¹³¹

ولكن عوادي الزمن لم تبق هذه الوفرة من نسخ الكتاب، وعلى طول البحث والتنقيب وشدة الاهتمام لم نعثر لها إلا على نسختين في كل بلاد الإباضية بشمال إفريقيا، وكل المكتبات العالمية العامة والخاصة ممّا تمكّنت من مراجعة فهارسه أو الاطلاع عليه؛ حاشاً عمّان، وهي مظنة لوجود بعض نسخ الكتاب فيها، إذ لم أتمكّن من زيارتها، ولا بلغني عن وجود نسخ من هذا الكتاب فيها.

ولذلك فإن اعتمادنا في تحقيق الكتاب كان على نسختين فقط، كتبت أقدمهما سنة 1209هـ، والثانية سنة 1294هـ، مع النصّ المدرج في الجزء الموجود من كتاب البرادي «البحث الصادق والاستكشاف في شرح معاني

131- البرادي: البحث الصادق والاستكشاف عن معاني كتاب العدل والإنصاف (مخطوط) ج: 1، 100 و- ظ.

130- أبو اليقظان إبراهيم: حياة أبي يعقوب الوارجلاني؛ مخطوط. ص 31.

كتاب العدل والإنصاف».

وإليك ووصف هذه النسخ التي اعتمدها في تحقيق هذا الكتاب:

1. نسخة «الأصل» أو (أ) وهي نسخة الأخ الفاضل الهادي الحاج إبراهيم - حومة والغ/ جزيرة حربة . وقد تفضل وأعزني هذه النسخة عند زيارتي لجزيرة حربة سنة 1969م . وهي في مجلدين..... والناسخ هو يحيى بن سليمان بن إسحاق، وتاريخ النسخ صبيحة يوم الأربعاء قبل طلوع الفجر، لنيف بقي من صفر 1209 بعد هجرة سيد الأنام.....

2. نسخة (ب) في مجموعة الشيخ بيانو محمد بن الحاج يوسف (بني يزجن - مزاب) وقد كنت أطلعت على هذه النسخة أول مرة في رحلتي الأولى إلى وادي ميزاب سنة 1968م في مكتبة الشيخ الفاضل بيانو محمد بن الحاج يوسف في بني يزجن، ولم أتمكن من تصويرها أو استعارتها، ورحلت لها مرة أخرى سنة 1978م، وتفرغت لمقارنتها مع مخطوطتي التي أعدتها اعتماداً على الأصل (أ) وعلى أصل البرادي في شرحه (بص).....

واسمُ الناسخ مجهول، ويذكر الناسخ في آخر النسخة أنه نسخها لعمر بن حمو بن محمد قاسم بن الحاج القراري مسكنًا الإباضي مذهبًا، وتاريخ النسخ 28 شعبان 1294هـ.

3. (بص) ويشير هذا الرمز إلى الأصل في شرح البرادي على كتاب العدل والإنصاف. ففي النسخة التي حصلت عليها من الموجود من شرح البرادي المعروف بـ «البحث الصادق والاستكشاف عن معاني كتاب العدل والإنصاف» درج الناسخ في قسم من المخطوطة على إثبات نص الأصل في صلب الشرح، ثم يواصل الشرح، فتكون من هذا بعض من نسخة أصليّة للمقارنة، بالإضافة إلى ما يرد أثناء الشرح من عبارات النص عند تفصيل الكلام عليها. ولكن الناسخ للأسف لم يلتزم بهذا في كامل الموجود من الشرح.

والذي عثرت عليه من شرح البرادي قطعان.....:

- القطعة الأولى من الشرح: وهي ضمن مجموعة البارونية بالحشأن - حربة.... وخطها مغربي جميل واضح.... الناسخ مجهول وكذلك تاريخ النسخ.

- القطعة الثانية من الشرح في حيازة الأستاذ الفاضل السيد يوسف أحمد الباروني - كاباو. وهي بخط المرحوم الشيخ عبدالله بن يحيى الباروني، وتاريخ النسخ 1265هـ.....

أما عملي في تحقيق هذا النص فقد اجتهدت قدر الوسع في استخراج نص صحيح مُعتمداً على ما تيسر لي من هذه الأصول. وما كان من زيادة أو نقص في بعض النسخ تبنت عليه، ووضعت ذلك بين معقوفين هكذا []. وخرجت آياته وأغلب أحاديثه وما تضمن من نصوص على أصولها، وشرحت ما تصوّرتُه غامضاً من ألفاظه. وقد وضعت أرقام الصفحات على يسار الصفحة، معتمداً ترقيم الأصل. وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل وكل ما أعمل خالصاً لوجهه الكريم.

ولا يفوتني هنا أن أسجل شكري وعرفاني لكل من السادة: الهادي الحاج إبراهيم، والشيخ بيانو محمد، والشيخ يوسف محمد الباروني، والشيخ يوسف أحمد الباروني؛ الذين مكّنوني من أصول هذا الكتاب، وسهّلوا أمامي إمكانية الاستفادة من مكتباتهم القيّمة. وأشكر أيضاً الأخ الفاضل فواد الثلثي الذي طبع هذا النص على الآلة الكاتبة، والأخ عبدالله علي بيج الذي تولى طباعة هذه المقدمة.

كما أخص بالشكر كذلك أستاذنا الفاضل الشيخ بكلي عبدالرحمن بن عمر، والذي كتبت ما ألتجأ إليه في بعض ما أشكل علي من بحوث هذا الكتاب، فكان يُادر بالعون دون تردد. والله تعالى المسؤول أن يجازي كل من ساهم في إخراج هذا الكتاب إلى النور. والحمد لله على ما أعان ووفّق. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب د. عمرو خليفة النامي

دلهي الجديدة 17 إبريل 1980م

[1 جمادى الآخرة 1400هـ]

1. من كتابات النامي (تذكار)

(ج) كَلِمَةُ النامي فِي سِجِلِّ زُوَّارِ المَكْتَبَةِ البَارُونِيَّةِ/ جَرِبَةِ

(تَحِيَّةٌ مَوَدَّةٌ لِلأُسْرَةِ البَارُونِيَّةِ)

فِي الحَشَّانِ

يَا جَيْرَةَ السَّلْفِ الأَطْهَارِ مَعْدِرَةَ إِنَّ قَصَرَ القَوْلِ عَن شُكْرِ المَبْرَاتِ
حَفِظْتُمْ العَهْدَ فاعْتَزَّ الجَمِيعُ بِكُمْ وَقَدْ رَفَعْتُمْ مَنَارًا للكَرَامَاتِ
عَرَّسَ نَمَاهُ أبو هَارُونَ بَارَكُهُ فَضَّلَ مِنَ اللّهِ فِي ماضٍ وَفِي آتِ
بَنَتْ جُدُودٌ لَكُمْ مَجْدًا فَمَا ضَعُفَتْ مِنْكُمْ عَزَائِمٌ عَن دَرَكِ المُهْتَمَاتِ
قَبَارِكُ اللّهِ مَا شَادَتْ عَزَائِمُكُمْ وَزَانِكُمْ بالمَعَالِيِ وَالمَسْرَاتِ

وكتب: عمرو خليفة النامي

لالوت - جبل نفوسة - ليبيا

7 جمادى الثاني 1388هـ

31 أغسطس 1968م

• مصدر الكلمة: نسخة مُصَوَّرَةٌ من سِجِلِّ الزُّوَّارِ بالمكتبة البارونية- جربة/ تونس (بحوِّزة الباحث).
ومِمَّا يُجَدِّدُ الإِشَارَةَ إِلَيْهِ هُنَا: تَعَلُّقُ النامي الكَبِيرِ بالمكتبة البارونية، واستفادتهُ فائدةٌ جُلِيَّةٌ من مَكْتُوباتِهَا، حتَّى صار خبيراً بِهَا عارِفاً بِمُحتَوِيَّاتِهَا، تَارِكاً بَصَمَاتِهِ عَلَى جُمْلَةٍ وافرةٍ من ذِخَائِرِهَا. ولا يَكادُ يُخَلُّو عَمَلٌ من أَعْمَالِهِ من إِحَالَةٍ عَلَى شَيْءٍ من مَخْطُوطَاتِهَا، بل حازت مَخْطُوطَاتِهَا النُصِيبَ الأَوْفَرَ من تَحْقِيقَاتِهِ. انظر مثلاً إِشَارَاتِهِ إِلَيْهَا فِي أَعْمَالِهِ التَّالِيَةِ: مقال وصف مَخْطُوطاتِ إباضيةِ حَدِيثَةٍ (في صَفْحَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ). وأطروحة الدكتوراه ص44، 133 (مع قائمة المصادر والمراجع). وأجوبة ابن خلفون ص42، 64، 65، 113. وأجوبة علماءِ فِرَّانِ ص42. والعدل والإنصاف (مقدمة الخقق) وغيرها كثير.

عمرو خليفة النامي - نالوت / ليبيا

السبت 7 جمادى الثاني 1388هـ

31 أغسطس 1968م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. وبعد؛ فقد وفق الله تعالى إلى زيارة الديار العامرة بالآثار المجيدة لأسلافنا الأجداد، حيث روضة العلماء الأعلام من رجال الدعوة وحملة الإسلام. وتشرفت بزيارة المكتبة البارونية الزاهرة العامرة بكل أفنان العلم وأمّهات الكتب ونوادير المخطوطات، فهي بذلك زينة لأهلها القائمين بها، ومنارة لأهل هذا المذهب ومفخرة وكنز.

وبهذه المناسبة الكريمة التي قضيت فيها أكثر من أسبوع كامل في أنس ووداد لا نظير لهما؛ يسرني أن أسجل الشكر الكثير للأب الفاضل العيور الحاج محمد الباروني، وابنه البار المؤمن الأستاذ يوسف محمد الباروني، على كرمهم وتضحياتهم وحسن سعيهم، الذي أقام داراً للندوة ومقرّاً للمكتبة على هذا الطراز الجميل المتقن، وذلك دليل غيبتهم وحرصهم على سيرة السلف، وحفاظاً عليها واعتزازاً بها، فجزى الله أهل الخير بما هم أهلهم، ورزقهم الجنة.

ولا يفوتني أن أسجل مشاعري التي عشتها في المدة التي قسّمها الله لي بين جميع أفراد هذه الأسرة الكريمة، والتي تلتخص في أنني عشنت بينهم كما يعيش الابن في أسرته، والأخ بين إخوانه، في جو غامر بالألفة والمودة والسعادة. أسأل الله أن يجمعنا في دار السعادة، وأن ييسر لنا فرص اللقاء والتعاون على البر والتقوى، إنه سميع مجيب.

ملحوظة: كانت زيارتي لغرض تجميع مواد الدراسة لأطروحة الدكتوراه التي أقوم بتحضيرها، في موضوع: تطوّر الفكر الإباضي، ودراسة نظام الولاية والبراءة عند الإباضية، في جامعة كامبردج ببريطانيا.

1. من كتابات النامي (محاضرة)

(د) ملامح عن الحركة العلمية بوارجلان ونواحيها

منذ انتهاء الدولة الرستمية حتى أواخر القرن السادس الهجري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أيها السادة والإخوة والأخوات

أحبيكم بتحية الإسلام؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قبل الدخول في موضوع هذه الخلاصة أود أن أتقدم أولاً بالشكر للأخ الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم؛ الذي تفضل فأتاح لي هذه الفرصة للمشاركة في هذا الملتقى الحافل، وكذلك فأني أود أن أشكر السادة الذين سهلوا علي مهمة تحضير هذا الحديث بما فتحوه أمامي من أبواب بيوتهم ومكتباتهم وخزائنهم، وما تكرموا به من ملاحظاتهم وتوجيهاتهم.

وأخص منهم بالذكر السادة: الشيخ بكلي عبدالرحمن بن عمر، والأستاذ الشيخ سليمان الحاج داود، والشيخ الحاج محمد بن يوسف بنانو، والأخ الأستاذ فخار حمو، والسادة: موسى بن الحاج يامي، والأخ جهلان أحمد، فقد هبوا أمامي كل الأسباب للفراغ من كتابة هذه الخلاصة في المهلة القصيرة التي حددها نظام الملتقى، فأنا مدين لهم ولكرمهم وحسن عونهم، أحسن الله جزاءهم.

لقد اخترت هذا العنوان لهذا الحديث لأنه ألقى بكم هذا اللقاء،

• المصدر: عدد مجلة «الأصالة» رقم 43/42 الخاص بفعاليات الملتقى الصادر في: صفر - ربيع الأول 1397 هـ/ فبراير - مارس 1977م عن مطابع البعث بفسنطينة/ الجزائر ص 14 - 33. وقد أصلحت عدة أخطاء وجذتها في المحاضرة الأصل، وجميع ما هو وارد في حواشيتها من تعليقات النامي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله

وَفَقَّنِي اللَّهُ تَعَالَى لزيارة الأسرة البارونية العزيزة ومكتبتها العامرة، للمرة الثانية في رمضان 1389هـ، وسعدت بلقاء أفرادها المبجلين، واستمتعت بسهرات رائعة في مختلف قرى الجزيرة، مما ترك في نفسي أجمل الأثر. كما كان للعطف الأبوي والرعاية الأخوية من الأسرة الكريمة أجمل الأثر في نفسي، وكذلك من ناحية البحث والدراسة فقد أتاحت لي كل التسهيلات التي طلبتها، وهذا من غيرتهم العظيمة على العلوم الإسلامية، التي بذلوا في سبيل حفظها الكثير، ويذلون في سبيل نشرها الكثير.

فجزاهم الله خيراً، وبعث فيهم من يسير على هدي هذه الأسرة المبارك وسمتها المستقيم، وجمعا في دار الكرامة. وأسأل الله أن يوفقني ويعينني على أداء بعض الدين لهؤلاء الإخوان الأحاب، بما أوديه من عمل في سبيل إعلاء كلمة الله، وإحياء تراث المذهب الشريف. نبئنا الله على الحق، ورزقنا الصديق.

وكتب بيده الفانية:

عمرو خليفة النامي

ليلة الثلاثاء 21 رمضان 1389هـ

21 ديسمبر 1969م

ولأن ما قَصَدْتُ إليه هو مساهمة وارجلان وما حولها في الفكر الإسلامي؛ كجزء امتدَّ واتَّصَلَ بعد غياب الدولة الرستمية من الوجود السياسي في شمال إفريقيا، فكان الدور الذي لعبته وارجلان هو تَجَسُّيمٌ وتعبيرٌ عن عمق التأثير الفكري والحضاري للدولة الرستمية؛ التي استمرت آثارها العلمية والفكرية قرونًا متصلة، بعد غيابها من الوجود السياسي تمامًا، فَبَعَثَتْ وارجلان ذلك الدور في صورة جديدة، وأعطته دفعة قوية حفظت له نصابه وحيويته.

ومن وارجلان وحركتها انبثق العمران والحركة العلمية في ديار بني مصعب، فنشأت قصور مزاب، واستمرت بدورها في الحفاظ على ذلك الأثر الحضاري العلمي الذي بدأته دولة بني رستم من قبل، وحافظت عليه ولفترة طويلة عاصمة الصحراء وجوهريتها «وارجلان».

لقد بدأ المذهب الإباضي كغيره من المذاهب الإسلامية على هيئة حركة علمية تربوية تأسست في البصرة جنوب العراق، فكان علمها البارز التابعي الشهير أبو الشعثاء جابر بن زيد (متوفى سنة 93هـ)، ثم من بعده مسلم بن أبي كريمة أبو عبيدة الذي توفي على أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور.

وعلى أيام أبي عبيدة اتسعت هذه الحركة العلمية في صورة دقيقة التنظيم على هيئة «مجالس» علمية تتعقد حول علماء معروفين، يقصدها أصناف شتى من الناس بين طلبة متخصصين، إلى آخرين يطلبون الموعدة والهداية، إلى علماء مُمَيِّزين يتدارسون شؤون الأمة، ويناقشون مسائل العلم وأمور الأمة عموماً، وقد كان عبدالرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية حريصاً هذه المجالس التي أسسها الإباضية في مراكز العمران بين القيروان والبصرة، ومن تلاميذ أبي عبيدة مسلم المباشرين.

وتقل التلاميذ نظام المجالس العلمية إلى المغرب، وانتظمت حلقاتها ما بين فزان وقابس وبين الجبل وتاهرت، وبعد ازدهار تاهرت واستتباب الأمر فيها كان دورها العلمي من أبرز المظاهر الحضارية التي حرصت عليها وعلى رسالتها، وكان طلبة العلم يقصدون تاهرت من كل حدب وصوب لأخذ

العلم أو لعرض العلم، فكانت تصل المشرق بالمغرب والشمال بالجنوب.

وتذكر الروايات التاريخية أن عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رستم قد أرسل ألف دينار إلى إخوانه بالبصرة أن يشتروا له الكتب، فأوفدوا له أربعين جملاً كتباً. وكذلك فإن أبا غانم بشر بن أبي غانم حضر من البصرة إلى تاهرت ومعه مدونته المشهورة، فعرضها على الإمام عبدالوهاب ورواها الإمام عنه.

وكانت عاصمة الدولة الرستمية «تاهرت» مركز حركة علمية مزدهرة يتولى الأئمة بأنفسهم الإشراف المباشر عليها والمساهمة فيها، وتذكر الكثير من الروايات وفود المشايخ إليها وتلقيهم العلم على الأئمة بتاهرت.

وكذلك فقد كانت للأئمة الرستميين مساهمات في التأليف، وتذكر المصادر كتاب التفسير لعبدالرحمن بن رستم، وكان موجوداً حتى أواخر القرن الرابع للهجرة. وكتب الإمام عبدالوهاب أحوبة فقهاء لا تزال موجودة، وكذلك الإمام أفلح بن عبدالوهاب، وكان أكثر كتابتهم في الفروع، واشتهر الإمام أبو اليقظان بمساهمة في البحوث الكلامية، فكتب في الاستطاعة وحدها أربعين رسالة، حسب ما يذكره رواة السير.

ولا أريد أن أطيل الحديث في هذا، وأرجو أن أكون قد كُفيت أمره ممن تعرض للحديث عنه في هذا الملتقى، ولكن ما قصده هنا هو دور وارجلان ونواحيها في مواصلة هذه الحركة العلمية بعد سقوط العاصمة الرستمية، فهي في الواقع التي حملت الراية بعد تاهرت وذهاب مجدها.

وكان في ازدهار وارجلان كمرکز تجاري هام وكمحطة رئيسية لحركة القوافل التي تنطلق منها إلى الجنوب وإلى الشرق والغرب والشمال، وكذلك لما تتمتع به من الأمن النسبي الذي تفرضه أهميتها التجارية وانعزال موقعها، مع قوة أهلها واتساع العمران حولها، كل هذا جعلها مكاناً مثالياً للقيام بدور البديل المباشر لتاهرت.

قال صاحب غصن البان في تاريخ وارجلان: «ووجدت في ورقات قديمة

من تواريخ وارجلان أن فيما بين حاسي بغلة ويُقَرَن ووارجلان وجبل العباد وسدراته مائة وخمسة وعشرون بلدة كلها عامرة بالإباضية».

وقال الإدريسي: «هي (أي وارجلان) مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة ونقارة - هقارة - فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم، وهم إباضية وهبيّة».

ومن مظاهر قوة وارجلان: أن أهلها حين لجا إليهم يعقوب بن أفلح عرضوا عليه البيعة، وأن يقوموا بأعباء الإمامة وتأسيس الدولة من جديد في وارجلان، ولكنه اعتذر عن ذلك؛ لعلمه أن أسباب ذلك لن تكون مكتملة رغم هذا الاستعداد الظاهر عند أهل وارجلان.

لا شك أن استقرار يعقوب بن أفلح في وارجلان يُحدِّد من الناحية الزمنية انطلاقة الحركة العلمية بها كبديل لتاهرت، ولم يكن ذلك هو بداية تلك الحركة، فقد كانت هذه الديار تزخر بالعلم والعلماء.

ومن الشخصيات العلمية الرئيسية في وارجلان: الشيخ أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن سهلون السدراطي المعروف بالطرقي، «وكانت قراءته على الأئمة بتاهرت». وصفه الدرجيني بقوله: «ذو الجهادين الأصغر الأكبر، والاجتهادين المصلي والدفتري». وقال الشماحي: «كان قاضياً، وهو النهاية في الفتيا في وارجلان».

وقد كوّن حركة علمية طيبة في وارجلان، من ألمع تلامذته فيها ووارث علمه والقائم بالأمر بعده: الشيخ أبو صالح جنون بن يمران، وكان عالماً ورعاً سخيّاً حازماً، وكان واسطة العقد في وارجلان، وإليه التجأ زعماء الإباضية من نواحي تاهرت والحامة، فقام بأمرهم أحسن قيام، وهياً لهم من أسباب الاستقرار والتعليم ما ساعد على ازدهار الحركة العلمية بها.

كان أوّل ذلك بمجيء أبي يوسف يعقوب بن أفلح، حين اضطره الحجابي

إلى اللجوء إلى وارجلان، فلما بلغها هو وأصحابه تلقاهم أبو صالح جنون بن يمران في جموع أهل وارجلان، فأكرموه ورفعوا درجته وأحسنوا القيام بحوائجه.

وإذا تعدّرت أسباب إقامة الدولة وتجديدها بعد ورود الشيخ أبي يوسف يعقوب بن أفلح بن عبد الوهاب فإن مساهمته في ميدان التعليم كانت ذا شأن كبير، فقد كان من فحول العلماء على عادة بيت الرستميين، قال الدرجيني: «وكان يعقوب يحمل أنواعاً من العلم، بلغنا أن سائلاً سأله ذات يوم؛ أتخفظ القرآن؟ فقال: أستعيد بالله من أن ينزل على موسى وعيسى عليهما السلام ما لم أحفظ وأعرف معناه، فكيف بالكتاب المنزل على نبينا محمد ﷺ؟!».

وقد أقام أبو يعقوب بوارجلان حتى توفاه الله بها، ونبع بعده ابنه سليمان، غير أنه انتحل مسائل خالف فيها المشهور من المذهب وعرف بها، وجرّت عليه اعتراض المشايخ وإعراضهم، فحرمه ذلك من مساهمة مؤثرة فعالة في الحركة العلمية هناك.

أما الشخصية الثانية بعد يعقوب بن أفلح فهو الشيخ أبو نوح سعيد بن زنعيل، وإليه انتهت رئاسة الإباضية في العلم، وقد شارك في الثورة ضد سلطان العبيديين، وعندما عزم السلطان العبيدي أبو تميم التحول إلى مصر أخذ معه أبا خزّر يغلا بن زلتاف حتى لا يحدث بعده شئ، وأراد ذلك من أبي نوح، ولكنه تمارض وتخلّف عن أبي تميم، «فهرب وقصد وارجلان بأهله مستخفياً خشية أن ينتقل إلى مصر، فلما بلغ خبر وصوله إلى مشارف وارجلان وجاء البشير بالخبر إلى أبي صالح جنون أرسل إليه يقول: لا تخف نجوت من القوم الظالمين». ولما وصل وارجلان أنزله الشيخ وجماعة أهل وارجلان وأحسنوا نزوله، وتجاوزوا الحد في الإعظام، وأكرموا مثواه غاية الإكرام».

وكان هذا الجو الكريم المضياف الآمن في وارجلان سبباً في اتجاه أنظار

أمثال هؤلاء العلماء والرُعماء إليها والاستقرار بها وتنشيط الحركة العلميّة فيها.

وقد رحّب أبو صالح جنون بالشيخ أبي نوح سعيد بن زنجيل، وأجرى عليه الأرزاق الكثيرة وأمدّه بكل ما يحتاج إليه من أموال، وأجرى له في كل يوم مائدةً وأخرى عشيةً، وباختصار: يسّر له كل سبل الاستقرار التي تجعله يأنس إلى وارجلان كقاعدة جديدة لنشاطه العلمي.

وعقدَ الشيخُ أبو نوح حلقةَ الدُّرس في مسجد الشيخ جنون، «وكانت جماعَةً أهل وارجلان تجتمع عند مسجد الشيخ جنون، فمنهم المستفيد منه علمًا ومنهم المستبرك بمشاهدته، والمشارك فيما يعرض من أمور دينه ودينه، والمقتني منه خُلُقًا يتحلّى به». قال الدرجيني: «ومكث أبو نوح في وارجلان على هذا الحال زمانًا».

ويظهر أن شخصيّة أبي صالح جنون كانت مسؤولةً في المكان الأول عن ازدهار الحركة العلمية وانتظام الحياة الدينية والاستقامة الخلقية في وارجلان، وذلك لما له من نفوذ واسع وتأثير مباشر، ولما يبذل من المال الطائل في دعم تلك الحركة العلميّة والنفقة على الشيوخ والطلبة، هو وأمثاله من أهل المال والفضل كالشيخ أبي عمرو التناوتي.

وبوقفاة أبي صالح تَضَعُ رُكن هَامٌّ من أركان هذه الحركة، فَتَجَحَّتْ مظاهرُ التهاون بالدين والاستخفاف بأحكامه، بل والتجهم لعلمائه وأئمتّه، وهذا أبو نوح سعيد بن زنجيل - بعد خروجه عن وارجلان وتقلبه في مواطن من إفريقية - يعودُ إلى وارجلان من جديد، وفي مُخيلته تلك الصورة القديمة المشجعة المؤنسة، فإذا به «يجد البلد بعد موت الشيخ أبي صالح جنون بن يمریان قد فسُد، والأحوال على غير ما عهد».

وقد لخصّ أبو نوح ما أخذه على الحياة الدينية والاجتماعية في وارجلان في الآتي:

1) انتشار نكاح السُر.

2) والثانية «أن أحدكم يُطلق عبيده فلا يعولهم ولا يموّنهم ولا يكفهم طلب معاشهم، فينطلقون في أموال الناس على غير رضی أصحاب الأموال وعلى غير إذنهم، فيكاد يكون أحدكم سارقًا وهو في محرابه جالس».

3) والثالثة أنكم أظهرتم فيما بينكم التحزّب والتفرقة، فطائفة منكم يقولون مسجداً ومسجداً، وطائفة يقولون حضرينا وحضريكم، ويهودينا ويهوديكم».

وقد أدرك أبو نوح أن واقعاً كهذا لن يُشجّع على حركة علمية دينية ملتزمة، خاصةً بعد أن بذل جهده في وعظهم ونهيمهم، ولكنهم تلكأوا في الردّ عليه والاعتذار عن تلك الحال أو الإفلاخ عنها، فارتحل عنها نهائياً.

وهكذا - ولفترة وجيزة - لم تستطع وارجلان أن تستقطب عناصر الحركة العلمية الإباضية التي رفع مشعلها بعد هذه الدور فيما حولها من الأصقاع علمٌ من أعلام القرن الرابع؛ هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بكر الفرستائي.

يُمثّل هذا الشيخ حلقة وصل بين مرحلتين من مراحل الحياة العلمية والسياسية في المجتمعات الإباضية بالمغرب.

فإذا كانت جهود من قبله قد اتجهت إلى محاولات سياسية وعسكرية لإعادة بناء الدولة الإباضية وترسيخها على أنقاض الدولة العبيدية - كما حاول أبو يزيد مخلد بن كيداد، وبعده أبو خزر يغلا بن زلتاف ورفيقه وتلميذه أبو نوح سعيد بن زنجيل - فإن أبا عبد الله محمد بن بكر قد انصرف بجهوده كليةً إلى بناء حركة علمية تربوية؛ منظمة تنظيمًا دقيقًا، للمحافظة على استمرارية البناء الاجتماعي والديني والعلمي للمجتمعات الإباضية، حين خبر ما انتهت إليه تلك المحاولات السياسية قبله من إنهاك للأمة وتبديد لطاقتها وإضعاف إمكاناتها.

وُلد الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر حوالي عام 345هـ على ما حققه الشيخ بكلي عبدالرحمن، وتوفي سنة 440هـ باتفاق المصادر؛ بتبني

يَسْلِي (بليدة اعمر) اليوم، وُدْفِنَ فيها، وهو نُفُوسِي الأصل من (فَرَسَطَاء) بجبل نفوسة بليبيا . وقد تنقّل في بلاد الإباضية ما بين ليبيا والمغرب في رحلات عديدة وتلقى العلم على شيوخ عدة، ولعل أهم وأكبر شيوخه: الشيخان أبو نوح سعيد بن زنعيل وأبو زكريا بن أبي مسور. قال الدرجيني: «وكانت لكل واحد منهما به عناية، ولهُ فيه حُسْنُ نظر». وقصد مدينة القيروان وأقام بها مدة يتلقّى علوم اللغة والنحو.

وبعد دراسة عميقة مستوعبة لأحوال مُختلف الديار التي تنقّل فيها، وبناءً — أيضاً — على أمر شيخه وتوصيته لبعض تلاميذه ؛ استقر رأيه على الانتقال إلى مغراوة ريغ (وغلانة اليوم) وقال: هاهنا ناسٌ رفاقُ القلوب، أرجو أن ينتجع فيهم الإسلام، ويتلقوا ما نحن عليه بالقبول، ويكونوا لهذا الخير أهلاً.

وقد عقد الحلقة وجلس للتدريس في أريغ سنة 409هـ، ثم انتقل عنها إلى تينيسلي (بليدة اعمر) وأسّس بها الحلقة وأرسى قواعد نظام العزابة، وصاغه في صيغته النهائية . ويذكر الشيخ بكلي عبدالرحمن أن أبا عبدالله محمد بن بكر قد سبق إلى هذا النظام ولكنه حرّره وكتبه ودوّن قواعده فعرّف به، وإنما كانت هذه الطريقة نتيجة دراسات ومداولات بينه وبين شيخه أبي زكريا بن أبي مسور. ويؤكد هذا الكلام قول الدرجيني في كتاب الطبقات: «فهذا سببُ عَودِ الحلقة المباركة، الصادرة عن أكرم مشاركة، بين الشجرتين الصليبتين المسورية والبكرية، بخطبة وإجابة كانتا في الله فتولدت بينهما الأنوار البهية».

ونستطيع أن نجزم بأن أهم إنجاز في إطار الحركة العلمية في هذه الديار وفي هذه المرحلة — نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس — كان وضع هذا المخطط المُحكّم لنظام الحلقة، وإرساء آدابه وقوانينه وترسيخها في أوساط المجتمعات الإباضية، مما أعان على دعم الحركة العلمية على أسس ثابتة ومنظمة.

وكنْتُ أودُّ لو سَمَحَ المجال أن أذكر طرفاً من هذه الآداب والقوانين التي

تتعرض لنظم الدراسة والحياة في الحلقة وما يتعلق بها من السلوك والعبادة، وحسي أن أشير هنا أنّها جمعت بين التعليم والتكوين وبين التدريس والتوجيه وبين الشكل والروح والجوهر والمخير... وتفصيل هذه التراتيب المذكورة في الطبقات للدرجيني، وهي كذلك عند البرادي في الجواهر، وقد تناولها دارسون معاصرون بدراسات ومناقشات مفصلة.

كان يتولى التدريس وإعداد الطلبة في هذه المرحلة ثلاثة شيوخ فكان أبو يعقوب - وهو شيخ كان بنفوسة امسنان - مقصداً للمبتدئين، فإذا انتظموا في حلقة علمهم السير وآداب الصالحين، ثم ينقلهم إلى مُحَمَّد بن سودرين فيجرون قراءة القرآن ويتعلمون اللغة والإعراب، ثم ينتقلون إلى أبي عبدالله بن بكر فيعلمهم أصول الدين والفقه، «فكانوا يشبهونهم بثلاثة تجارين؛ أحدهم يُحسِّنُ قَطْعَ الخشب، والثاني يشقها وينشرها، والثالث يركب الألواح ويسمّرها فيما يصلح من الأدوات».

وقد كان الشيخ يُخرُجُ للحلقة في أوان الربيع إلى بادية بني مصعب، ويفضل جهوده ومساعيه استمالهم إلى طريقته، وأصبحت ديار بني مصعب فيما بعد مظهرًا متصلًا لتلك الجهود المثمرة التي استطاعت أن ترسخ مثل الإسلام وقيمه وتحافظ عليها على مر الزمان، وكان يوزع تلامذته على الأحياء في إفريقيا للتعليم والإرشاد . وبذلك استطاع أن يوسع آفاق حركته في كل الديار الإباضية بين جربة ووارجلان، وأن يحافظ على مثل الإسلام وأخلاقه بين الناس بما أوتي من حُسن التدبير وجميل الرأي .

وكان يشجع طلبته على مطالعة الكتب وتأليفها، وقد نبغ منهم عدد كبير ساهم في الكتابة والتأليف، وتركوا آثاراً علمية جمّة ذات قيمة كبيرة، حدوا في ذلك حدو شيخهم أبي عبدالله، وقد نصّب من نفسه قدوة لهم. قال الشماحي: «وله في كل فنّ تأليف كثيرة».

ومن هؤلاء العلماء الذين ساهموا في حركة التأليف : الشيخ أبو الربيع سُلَيْمَان بن يَخْلِف المَزَاتِي المتوفى سنة 471هـ، تلقى العلم عن أبي عبدالله

محمد بن عبدالله بن بكر، ثم رحل إلى جرّبة لاستكمال تعليمه بها على أبي محمد ويسلان بن أبي صالح وزكريا ويونس، وهناك عقد الحلقة لتدريس أصول الدين، ووفد عليه الطلبة من كل ناحية، وألف في العقائد كتاباً نفيساً جليل الفائدة في جزأين؛ سمّاه «التحفة المخزونة والجواهر المصونة» وتوجد نسخ مخطوطة منه.

ومنهم أيضاً أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر المتوفى سنة 504هـ، تلقى العلم على أبيه وعلى أبي الربيع سليمان بن يخلف، وألف الكتب في أكثر من ميدان، ومن كتبه: كتاب «الجامع» في الفروع ويُعرف بأبي مسألة، كتبه بناء على طلب أبي عبدالله محمد النفوسي الأبدلياني في جزأين، وقد طبع بزنجبار، وله كتاب «القسم»، وكتاب «أصول الأراضين» في عدة مجلدات، وكتاب «تبيين أفعال العباد» في علم الأخلاق على أسس إسلامية محضة في ثلاثة أجزاء، و«مسائل التوحيد» رسالة مختصرة فيما لا يسع جهله (مُعَدَّة للنشر)، وكتاب «مسائل الأموات» وكتاب «الدماء» وكتاب «الألواح»، وهذه الكتب كلها موجودة في خزائن المخطوطات في مصر وجبل نفوسة وجربة ووادي ميزاب.

قال الدرجيني: «إنه لما دنت وفاته أودع علومه الكتب، فصنّف تصنيفات خمسة وعشرين كتاباً، وكتاباً آخر تركه في الألواح». وتذكر الروايات أن قد عرض جميع ما صنّف غير كتاب واحد تركه في الألواح في أجلو. ورغب الأشياخ في وصولها إليهم بإيفران من قرى وارجلان فعرضها عليهم ولده، وهؤلاء الأشياخ هم إسماعيل وحمو بن المعز وأيوب بن إسماعيل وداود بن واسلان، وأبو سليمان الزداغي.

وكان له حرص على العلم واهتمام بالمكتبات، وقد ذهب خصيصاً إلى جبل نفوسة للمطالعة في مكتبة قصر «ولم» الشهير، ويقع في قمة جبل مرتفع يشرف من ناحية الشرق على مدينة شرّوس، ومكث في تلك المكتبة أربعة أشهر لا ينام ليلاً ولا نهاراً إلا فيما بين أذان الصبح إلى طلوع الشمس. قال: «فنظرت في أثناء ذلك فيما هناك من كتب المذهب التي وصلت من المشرق،

فإذا هي نحو 33 ألف جزء، فتخيرت أكثرها فائدة فقرأتها حينئذ».

وممن ساهم في حركة التأليف من هذه الطبقة: الشيخ تبغورين بن عيسى الملشوطي، وكان - كما يقول الشماخي - «من أعظم الناس قدراً، ومن أكثرهم علماً، ومن أشدهم عملاً». قال: «وله تأليف في العقائد، تدل على نباهة شأنه ورفيع درجته».

ومن مؤلفاته: كتاب «الجهالات» وهو رسالة صغيرة في مسائل الكلام شرحها أبو عمار عبدالكافي في مجلد متوسط، وله كتاب «أصول الدين» تكلم فيه في مسائل العقيدة وناقش الأصول العشرة: التوحيد، والقدر، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وألا منزلة بين المنزلتين، والولاية والعداوة، والأمر والنهي، والأسماء والصفات، والأسماء والأحكام، ثم عقب عليها بمناقشة مسائل الرؤية والشفاعة والصراف والميزان وعذاب القبر وغيره.

وهو كتاب جيد التصنيف، حسن التيوب، سهل العبارة، وقد حققته تحقيقاً علمياً، وترجمته إلى اللغة الإنجليزية بالتعاون مع الأستاذ الدكتور Trover Le Gassick أستاذ الأدب العربي الحديث في جامعة متشجان Michigan، وهو مُعدّ للنشر.

وقد ذكر الشيخ عبدالله السالمي - من علماء عمّان - أن لتبغورين بن عيسى رسالة «الأدلة والبيان» في أصول الفقه، ولم أرها ولم أطلع عليها.

وعرفت الحركة العلمية في هذه البلاد وفي هذه المرحلة صورة جديدة من التأليف المشترك، وهو يشبه إلى حد كبير ما يُعرف اليوم بالموسوعات العلمية، حيث يساهم العلماء كل في تخصصه الذي يُحسنه في كتابة كتاب متكامل، ومن هذا اللون: كتاب «الديوان» الذي ألفه ثمانية شيوخ وجعلوه خمسة وعشرين جزءاً.

وشبهه بهذا العمل الجماعي: «ديوان الأشياخ»؛ الذي ألفه علماء الإباضية في غار أمجماج بجرّبة، وقد عرضت تلك الأجزاء كلها - أجزاء ديوان العزابة - على لجنة عليا تتألف من المشايخ الثلاثة: أبو العباس أحمد بن محمد بن

بكر، وأبو الربيع، وأبو محمد ماكسن بن الخير.

وكان الشيخ ماكسن ممن قطن وارجلان وأقام فيها فترة طويلة يؤاصيل جهود من سبقه في إحياء الحركة العلمية بوارجلان. وكذلك فإن الشيخ أبا سليمان داود بن أبي يوسف ترك بها (بوارجلان) جماعة من التلاميذ، وإليهم رجعت الرئاسة في العلم، وبهم استردت وارجلان مكانتها العلمية من جديد. يذكر الدرجيني رواية عن أبي الربيع سليمان بن يخلف قال: «فقد الناس من مسائل الحلال والحرام أكثر مما فقدوا من مسائل علم الكلام والجدل، ولا أعلم اليوم من يقرأ عليه علم الفروع إلا أن يكون أحداً من تلامذة أبي سليمان داود بن أبي يوسف، فإن منهم جماعة بوارجلان».

وبعد هذه المرحلة تبع في وارجلان عالم جليل أعطى دفعة قوية للحركة العلمية فيها بعلمه وماله وسخائه، وأحيا من جديد ذلك الدور الذي رأيناه من قبل على أيام أبي صالح جنون بن يمرتان. هذا الشيخ هو أبو إسماعيل أيوب بن إسماعيل، عقد حلقة الدرس في وارجلان، وكان الطلبة يقصدونه بها من كل جهة، وقد كان كثير الإبرار لطلبته؛ يؤاسيهم ويُنق عليهم مُسخرًا لذلك كل ماله.

ومن بين تلاميذه النابهين: الشيخ أبو سعيد سليمان بن علي الدرجيني جد مؤلف الطبقات، وأبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي، وأبو عمارة عبدالكافي بن أبي يعقوب التناوتي، وأبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن مناد السدراتي الوارجلاني، وهؤلاء الأعلام من طبقة بلغت شأواً في العلم والتأليف؛ لم تسبق إليه ولم تلحق في مضماره، فأغنوا بتأليفهم الكثيرة المكتبة الإسلامية عموماً والمكتبة الإباضية خصوصاً.

وإذا كانت مساهمة هؤلاء الأعلام في هذه الحركة العلمية من أزهى العصور التي رفعت مكان وارجلان وأحلتها محل الصدارة من جديد؛ فإن فضل ذلك يرجع في المكان الأول إلى شيخهم وأستاذهم أبي إسماعيل أيوب بن إسماعيل، فقد ترعرعت هذه الحركة وازدهرت بفضل توجيهه ورعايته، وحسن قيامه بشؤون الطلبة وإبراره لهم.

وتذكر كتب السير مدى تعلق طلبته به وشدة ارتباطهم بهذا الشيخ، ومن صور ذلك: قصيدة أبي يعقوب الوارجلاني البائية في رثاء الشيخ أيوب، ونقتبس منها الأبيات التالية. يقول:

بكت السموات العلى وتجومها حزننا عليه والفلا والزروب

واستوحشت منه المساحد كلها لما خلّت منه وحسن النبي

واستشعر التقوى شعرا خالصا فدثاره الترغيب والترهيب

ويقول فيها:

يا غائباً ما تنقضي حسراتنا أبداً عليه ولات حزين يؤوب

يا غائباً سکن الثرى في حفرة تعلو الصفائح قبره والطوب

إن غبت عن أبصارنا وسمعنا لم تحتجبك عن القلوب غيوب

قد كان أن لك الجواب لسائل يدعو، ويسأل، كيف كنت تحيب

ما كان ضرك لو أجبت نداءه إن الحشا ضرماً، وأنت قـريب

وهي قصيدة طويلة أوردتها صاحب الطبقات كاملة.

وأحب أن أخصص هذا القسم الأخير لأربعة من أعلام الحركة العلمية في وارجلان ونواحيها، هم:

1- أبو عمرو عثمان بن خليفة الميرغني السوفي: وهو وإن كان من سوف إلا أنه قد تلقى علومه في وارجلان، فهو لذلك جزء من هذه الحركة العلمية ونبت من نباتها الزكي المبارك. قال الشماخي: «كان إماماً ولا سيما في العلوم». قال: «وله من التأليف كتاب السؤالات وهو تأليف مفيد أظهر فيه منزلته من العلم».

ويورد الشماخي ملاحظات أخرى حول كتاب السؤالات لا بأس

بإيرادها هنا لأنها تُصوِّر لنا لونا من ألوان التأليف المعلومة عند علماء هذه الديار. قال الشماخي: «وأبو موسى عيسى بن عيسى النفوسي هو الذي أَلَفَ كتاب السُّؤالات التي رُوِيَتْ عن أبي عمرو عثمان بن خليفة من إملاء الشيخ أبي يعقوب يوسف بن محمد، وعرضَ الكتاب على الشيخ أبي صالح نوح بن الشيخ إبراهيم وعلى الشيخ المعز بن جفاو (من أئمة الكلام واللغة والفقهاء)».

وكتاب «السُّؤالات» مزيجٌ من البُحوث الكلامية واللغوية، غايةً في التحقيق والتفصيل، وتوجد منه مخطوطات عديدة في جبل نفوسة وجربة ومزاب، وعليه شروخٌ وحواشٍ للمتأخرين. قال الشماخي: «وله تأليفٌ غيرُها» يعني السُّؤالات، ويوجد منها «رسالة مختصرة في فرق الإباضية» طُبِعَتْ في الجزائر ضمن مجموع بدون تاريخ.

2- الشخصية الثانية: أبو عمّار عبدالكافي بن أبي يعقوب التناوتي؛ أخذ العلم بوارجلان، ثم ارتحل إلى تونس، وأقام فيها أعواماً يتلقى علوم اللسان والمنطق، ورجع منها بعد أن قضى نَهْمَتَهُ من العلم، فاستقر بين وارجلان وجبال بني مصعب.

وله أجوبة ومراسلاتٌ ومؤلفاتٌ لها شأن، أهمُّها: كتاب «الموجز» في مقالات الإسلاميين وغيرهم في جزأين، وله «شرح الجهالات»؛ وهو كتاب حسنُ التصنيف جيدُ البحث، شَرَحَ فيه بعض المسائل الكلامية التي أحملها الشيخ تبغورين بن عيسى في كتاب «الجهالات»، وله «مختصرٌ في الفرائض». وهو الذي رَتَبَ إسناده الطريقة الإباضية في طبقات قَسَمَهَا على سنوات التاريخ؛ تشغُلُ كلُّ طبقةٍ حَمْسِينَ سنةً ما بينه وبين هجرة رسول الله ﷺ. وقد ضَمَّنَهَا الشيخ الدرَجينيُّ في أول الجزء الأول من الطبقات.

وكان أبو عمّار رحمه الله سخيًّا جوادَ النفس، فرَغَ كلَّ جهده للعلم والتأليف، فكان كما قال عنه الدرَجيني: «سببًا في بعث الحركة العلمية الإباضية وإحيائها، وتصدَّر بوارجلان للتدريس والفتوى وحل ما يردُّ إليه من المعضلات».

وذكرَ عيسى بن أحمد أن أبا عبدالرحمن الكرتي كَتَبَ إلى جماعة الشيوخ بوارجلان كتابًا يسألُهُم سؤالَ مسترشد، قال: «فلما وردَ عليهم كتابه لم يَرَوْا نفوسَهُم أهلاً لمُجاوبته إلا أبا عمّار، فجابوه عن جميعها». وقد أوردَ الدرَجيني نصَّ الأسئلة وجوابه عليها في الطبقات.

وكذلك بعثَ إليه رجلٌ من غانة يُسَمَّى عبدالوهاب بن مُحَمَّد بن غالب بن تَمير الأنصاري رسالةً يسألُ فيها عن مسائل علم الكلام، فتوفّي رحمه الله وأجاب عليها أبو يعقوب، وهي مُضمَّنة في كتاب «الدليل والبرهان».

3- الشخصية الثالثة: أبو يعقوب يوسف بن خَلْفُون المِزَاتِي، وكان مُحَقِّقًا بلَغَ الغاية في علم الأصول والفروع، كثيرُ الاطلاع على مسائل الاتفاق والاختلاف، وله مساهمةٌ طَيِّبة في التدريس والتأليف، والموجود من مؤلفاته رسالتان؛ إحداهُما رسالةٌ جيِّدة التأليف في الفقه المقارن، فَصَّلَ فيها الجوابَ على عدد من المسائل التي يَدُورُ فيها الخلاف، وذكَّرَ فيها مذاهبَ علماء الأمامار ومُختلف الأئمة، وساق فيها الأدلة وما احتجَّ به صاحبُ كلِّ مذهب في صورة تدلُّ على سعة اطلاعه ورحابة صدره وصدق منهجيته. وقد نُشِرَتْ مُحَقَّقَةً سنة 1972م. وله رسالةٌ أخرى تشتمل على مواظ وتنبهات فقهية هامة كَتَبَ بِهَا إلى جبل نفوسة. وهي مفقودة مع الأسف.

وقد جرَّ عليه تفتُّحه العلمي وكثرة مطالعته في كُتُب الخلافات الكثير من الأعتات من بعض معاصريه، ولكنَّ مَسْلَكَهُ الذي نَهَجَهُ كَانَ أَجْدَرَ بالظهور والقبول؛ لتجاوُزه حُدود التقليد الجامد إلى الأصول الأولى، ولنفاذه من الأحكام المجرَّدة إلى مناقشة الأدلة في مصادرها الأصلية، وأصبح هذا الطابع السَّمُح سبيلًا من جاء بعده من علماء المغرب الإباضية ممن كَتَبَ في الفروع والأصول.

4- أما شخصية وارجلان الفذَّة وفيلسوفها الكبير فهو أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن مناد السدراي الوارجلاني (الذي توفي سنة 570هـ)؛ تَلَقَّى دُرُوسَهُ الأولى في وارجلان على شيخه أبي إسماعيل أيوب بن إسماعيل

وطريقته، ثم رحل إلى قرطبة بالأندلس، فاغترف من علومها ومعارفها في أوج ازدهار جامعاتها بالعلوم والمعارف، فصار كما قال الدرجيني: «له في كل جو مُنتَفَس، وفي كل نار مُقْتَبَس، له يدٌ في علم القرآن وفي علم اللسان، وفي الحديث والأخبار، وفي رواية السير والآثار، وعلم النظر والكلام، والعلوم الشرعية عباداتها والأحكام، وعلم فرائض الموارث ومعرفة الرجال، ولم يخلُ من اطلاع على علوم الأقدمين».

قال: «بل حصل مع ملازمة السنة قطعة من علم الحكماء المنجمين». وله أسفار كثيرة ورحلات ومغامرات في مجاهل إفريقيا وغيرها من البلاد، يُشير في ثنايا كتبه إلى بعض ما وقع له فيها من غرائب، خصوصاً كتاب «الدليل والبرهان».

واستقر أبو يعقوب في وارجلان حيث تفرغ للتأليف والتعليم، وذكر عنه أنه أقام فيها سبعة أعوام ملازماً داره، لا ينصرف، يشتغل بالنسخ والتأليف، لا يصرّفه عن ذلك شيء سوى قيامه لأداء فرضه. قال الدرجيني: «حدثني بعض النفاة قال: وقفت ببلاذنا قسطنطينية وسوف وأريغ ووارجلان على سبع نسخ أو ثمان من كتاب العدل والإنصاف كلها بخط يده».

أما مؤلفاته فقد كتبت في التفسير كتاباً جليلاً القدر، وهو مفقود مع الأسف، وصَفَ البرادي ما رآه منه وصفاً يدل على القيمة العلمية الرفيعة لهذا التفسير.

قال البرادي: «هو كتاب عجيب، رأيت منه في بلاد أريغ سفراً كبيراً؛ لم أر ولا رأيت سفراً أضخم منه ولا أكبر منه، وحزرت أنه يجاوز سبعمئة ورقة، فيه تفسير الفاتحة والبقرة وآل عمران، وحزرت أنه فسّر القرآن في ثمانية أسفار مثله، فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشقى للصدور في لغة أو إعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو في جميع العلوم...». قال البرادي: «ولعمري إن فيه لعلومًا حمة».

أما في علوم الحديث فقد أعاد ترتيب المسند «مسند الربيع بن حبيب»،

وترتيبه هو المتداول اليوم، وألف رسالة في التعريف برجال المسند، وهذه الرسالة مفقودة.

وله في أصول الفقه كتاب جليل؛ هو كتاب: «العدل والإنصاف» في ثلاثة أجزاء، وقد أتممت تحقيقه وإعداده للنشر، وهو من خيرة المؤلفات في بابه، ليس في المكتبة الإباضية فحسب، بل في المكتبة الإسلامية كلها.

وله كتاب «الدليل لأهل العقول» في أصول الدين ومباحث علم الكلام والمنطق والفلسفة في ثلاثة أجزاء، طبع طبعة حجرية بمصر، وتوجد منه مخطوطات عديدة، وقد اهتم به بعض الدارسين المعاصرين وترجموا فصولاً منه.

ولهُ أجوبة كثيرة في مختلف الفنون. قال الشماحي: «ولا أحصي ما رأيت له من الأجوبة كثرة».

وله ديوان جمعت فيه قصائده، والمعروف منها اليوم قصيدتان: القصيدة البائية في رثاء شيخه أيوب بن إسماعيل، وقد ضمنها الدرجيني كتابه الطبقات، والقصيدة الحجازية ومطلعها:

عديري عديري من ذوات المعاجر ذوات العيون النجيل بيض المحاجر
ذوات الشفاه اللغس بالظلم واللمى غرائر خرق الصنع سود الغدائر

وهي قصيدة طويلة على عدد أيام العام، بدأ فيها بغزل رقيق، ثم ذكر الرحلة على وارجلان:

خرجنا نؤم الحج من حيز وارجلا يفتيان صيدني من وجوه العشاير

ووصف الطريق منزلة منزلة في سيرهم حتى وصلوا، وذكر المناسك، ثم فعل كذلك حتى خرج، ووصف طريق العودة حتى وصوله إلى وارجلان، حيث يقول وقد خلف خلفه هول الطريق وشدته:

حَلَلْنَا بِوَادِ الْخَيْمِ وَاللَّحْمِ وَالْقِرَى بِهَاتَا وَهَاتَا فِي الصَّحَارِي الْمُنَاكِرِ
حَزَى اللَّهُ عَنَا وَرَجُلَا خَيْرَ مَا حَزَى بِهِ بَلَدًا عَنْ طَالِبِ الْخَيْرِ صَائِرِ
هُوَ الْجَنَّةُ الدُّنْيَا وَأَبْوَابُ مَكَّةِ وَأَبْوَابُ بَيْرُغْـمَانَةِ وَالذَّنَائِرِ

ثُمَّ حَرَجَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِ الْحَدَثَانِ، ثُمَّ وَعَظَ أَحْسَنَ وَعَظَ تَذَكِيرًا...
وَتُوجَدُ مِنْهَا نُسْخٌ مَخْطُوطَةٌ فِي مَكْتَبَاتٍ جَرِيَّةٍ وَمِيزَابٍ.

وَيُذَكَّرُ أَنَّ أَبَا يَعْقُوبَ كَتَبَ كِتَابًا فِي التَّارِيخِ، وَلَمْ أَتَحَقَّقْ مِنْ ذَلِكَ،
وَلَعَلَّ التَّنْقِيحَ وَالبَحْثَ يَكْشِفَانِ عَنْهُ مِنْ بَعْدِ، عَلَى أَنَّ الْمَوْجُودَ مِنْ كِتَابَاتِ
أَبِي يَعْقُوبَ وَتَأْلِيْفِهِ يَصْغُهُ فِي مَصَافِّ أَعْلَامِ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ رَفَعُوا رَايَةَ الْعِلْمِ
وَأَذَكُّوا حِدْوَةَ الْمَعْرِفَةِ.

وَلَا بُدَّ مِنَ الْإِشَارَةِ هُنَا إِلَى أَنِّي فِي هَذِهِ الْعُجَالَةِ قَدْ تَعَمَّدْتُ ذَكَرَ مَشَاهِيرِ
الْعُلَمَاءِ مِمَّنْ نَبَعَ بِهَذِهِ الدِّيَارِ فِي الْفِتْرَةِ الزَّمْنِيَّةِ الَّتِي حَدَدْتُهَا فِي عُنْوَانِ هَذِهِ
الْخَالِصَةِ، وَهَنَّاكَ الْعَدَدَ الْكَبِيرَ مِمَّنْ هُمْ فِي دَرَجَتِهِمْ فِي كِفَايَتِهِمْ الْعِلْمِي
وَالدِّيْنِي.

وَإِذَا كَانَ ضَيْقُ الْمَجَالِ يَمْنَعُنَا مِنَ التَّفْصِيلِ وَالتَّطْوِيلِ فَلَا بُدَّ مِنْ إِدْرَاجِ
أَسْمَاءِ آخَرِينَ بَيْنَ هَذِهِ الْمَشَاعِلِ الْوَارِجَلَانِيَّةِ، وَإِلَيْهِمَا يَرْجِعُ الْفَضْلُ فِي حِفْظِ
هَذِهِ الْأَثَارِ وَنَشْرِهَا وَإِبْرَازِهَا؛ بِمَا كَتَبَاهُ مِنْ سِيرَةِ أُمَّتِهَا وَعِلْمَائِهَا وَبِمَا دُونَهَا
مِنْ أَجْبَارِهَا، هُمَا: أَبُو زَكَرِيَّا يَحْيَى الْوَارِجَلَانِيُّ صَاحِبُ كِتَابِ السَّيْرِ،
وَالشَّيْخُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدِ الدَّرَجِينِي صَاحِبُ كِتَابِ الطَّبَقَاتِ.
فَالْأَوَّلُ وَارِجَلَانِيٌّ أَصْلًا، وَالثَّانِي وَإِنْ كَانَ مِنَ الْحَامَةِ مِنْ جَنُوبِ الْقَطْرِ
التُّونِسِيِّ إِلَّا أَنَّهُ دَرَسَ فِي وَارِجَلَانَ وَتَلَقَّى بِهَا عُلُومَهُ، وَكَذَلِكَ وَالِدُهُ وَجَدُّهُ،
فَهُوَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْحَرَكَةِ وَنَبْتَةٌ زَكِيَّةٌ مِنْهَا.



وَنَخْتُمُ هَذِهِ الْخَالِصَةَ بِالْمُلَاحَظَاتِ التَّالِيَةِ:

• لَقَدْ كَانَ لَوَارِجَلَانَ وَبَيْتِهَا كَمَرْكَزِ تِجَارِي كَبِيرٍ، وَمَحْطَةٌ حَيَوِيَّةٌ
لِرِحَالِ الْقَوَافِلِ الَّتِي تَرْتَبِطُهَا بِمَا حَوْلَهَا مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ، وَمَا تَمْتَعُ بِهِ مِنْ
أَمْنٍ نَسَبِيٍّ؛ كَانَ كُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْمَقُومَاتِ الَّتِي جَعَلَتْهَا مَلْجَأً لِرُعَمَاءِ الْإِبَاضِيَّةِ
وَعُلَمَائِهِمْ، يَفِيئُونَ إِلَيْهَا يَنْشُدُونَ الْإِسْتِقْرَارَ فِيهَا، وَيَتَّخِذُونَ قَاعِدَةً لِنَشَاطَتِهِمْ
وَمَحَاوِلَاتِهِمْ الْمُتَّصِلَةَ لِأَحْيَاءِ الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَنَشْرِهَا.

• بِالرَّغْمِ مِنْ وُرُودِ بَعْضِ الْإِشَارَاتِ فِي كِتَابِ السَّيْرِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ
وَارِجَلَانَ لَمْ تَكُنْ فِي مَجْمُوعِهَا تُرْحَبُ بِالْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَمَسْئُورِيَّاتِهَا؛ إِلَّا
أَنَّ الْمُنَاطِقَةَ كُلَّهَا بِمَا فِي ذَلِكَ وَارِجَلَانَ لَمْ تَخْلُ فِي أَيْةٍ مَرِحَلَةٍ مِنْ مَرَاكِلِ
هَذِهِ الْفِتْرَةِ التَّارِيخِيَّةِ مِنْ شَخْصِيَّاتٍ ذَاتِ أَثَرٍ وَنُفُوزٍ، دَعَمَتِ الْحَرَكَةَ الْعِلْمِيَّةَ
وَأَزْرَقَتْهَا بِالْمَالِ وَالْعِلْمِ وَأَسْبَابِ النَّمُوِّ وَالْإِزْدِهَارِ.

• كَانَتْ وَارِجَلَانَ مَصْدَرًا لِشِعَاعِ عِلْمِيٍّ تَجَاوَزَهَا إِلَى بِلَادٍ بَعِيدَةٍ مِثْلِ
غَانَةَ وَجَبَلِ نَفُوسَةَ وَجَبَالَ بِنِي مَصْعَبٍ، وَتَمَثَّلَ هَذَا فِي الرِّسَالِ وَالْأُجُوبَةِ الَّتِي
كَانَتْ تَرُدُّ عَلَى عِلْمَائِهَا مِنْ هَذِهِ الْأَصْقَاعِ، فَكَانُوا يَكْتُبُونَ بِأَحْوَابِهِمْ عَلَيْهَا،
وَكَانَتْ حَفَظَتْ لَنَا التَّارِيخَ عِدَدًا مِنْ هَذِهِ الرِّسَالِ وَالْأُجُوبَةِ وَالْمَوْثِقَاتِ.

• عَلَى أَنَّ طَبِيعَةَ وَارِجَلَانَ كَمَرْكَزِ تِجَارِي هَامٍّ يَفْتَحُ أَبْوَابَهُ لِلوَارِدِ وَالصَّادِرِ
وَيَفْتَحُ صَدْرَهُ لِكُلِّ مَغَامِرٍ يَنْشُدُ الثَّرَاءَ وَيَسْتَكْشِفُ مَجَاهِلَ الصَّحْرَاءِ، هَذَا الطَّبَاعِ
كَانَ ذَا أَثَرٍ وَاضِحٍ فِي تَوْسِعَةِ آفَاقِ الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ فِيهَا وَالخُرُوجِ بِهَا إِلَى آفَاقِ
رَحْبَةٍ سَمَّحَةٍ، سِوَا فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ الَّتِي أَهْتَمَّ بِهَا عِلْمَاءُ وَارِجَلَانَ وَقَدْ شَمِلَتْ
الْفَلَسَفَةَ وَالنَّجُومَ - وَهِيَ عِلْمٌ لَا تَجِدُ تَشْجِيعًا فِي الْأَوْسَاطِ الْإِبَاضِيَّةِ الْمُحَافِظَةِ
عَادَةً - أَوْ فِي طَرِيقَةِ الْبَحْثِ وَالتَّنَاوُلِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْ إِطَارِ الدِّرَاسَةِ لِلْمَذْهَبِ
الوَاحِدِ إِلَى دِرَاسَةِ شُمُولِيَّةٍ لِلْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ فِي مَجْمُوعِهِ، كَمَا ظَهَرَ فِي كِتَابَاتِ
الوَارِجَلَانِيِّ وَابْنِ خُلْفُونَ وَأَبِي عَمَّارٍ وَغَيْرِهِمْ، أَوْ فِي الْإِتِّصَالِ بِمَرَاكِزِ الدِّرَاسَةِ
وَمُعَاهَدِ الْعِلْمِ الْإِسْلَامِيَّةِ خَارِجَ بِلَادِ الْإِبَاضِيَّةِ، كَقَرطَبَةِ فِي الْأَنْدَلُسِ كَمَا هُوَ
الْحَالُ مَعَ أَبِي يَعْقُوبِ الْوَارِجَلَانِيِّ، وَكَذَلِكَ تُونِسَ وَالْقَيْرَوَانَ كَمَا هُوَ الْأَمْرُ مَعَ
أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ بَكْرٍ وَأَبِي يَعْقُوبِ عَمَّارِ عَبْدِ الْكَافِي.

فهذه الملامح التي حاولتُ رَسَمَها هنا في هذه الخلاصة العابرة هي في الواقع قليلٌ من كثير، وإذا استطعتُ أن أضع أمامكم صورةً عامةً لتلك الحركة العلمية المزدهرة التي اتصلتُ وامتدَّت وما تزالُ فإنني أمُلُّ أن يُوجِّهَ الباحثون من الشباب الجزائري وغيرهم من العلماء بعضَ جهودهم إلى الكشف عن هذه الكنوز، وإحيائها ونشر محاسنها، ليَعْلَمَ العالمُ كُلُّه أن كلَّ حَفَنَةٍ من تراب في أرض الإسلام قد تَشَبَّعتْ منذ ارتفعَ في الأفق نداءُ لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله بدماء الشهداء حَتَبًا إلى جنب مع مداد العلماء، وأن هذه الأمة التي أضاعت المشعلَ أمام الإنسانية في الماضي تستعدُّ للقيام بذلك الدور من جديد، ونحن نرجو أن يكون نصيبُ الجزائر في ذلك النصيبِ الكبيرِ الوفيرِ .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

1. من كتابات النامي (تقديم تاريخي)

هـ) تقديم لكتاب « ثورة أبي يزيد » *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وصلّى الله على سيدنا محمد وسلم
لقد تَرَدَّدْتُ كثيراً قبل كتابة هذه الأسطر التي شرفني العلامة المجاهد الشيخ
سليمان بن الحاج داوود بن يوسف بكتابتها...

أولاً : لأن تصدير كلام الشيخ أمرٌ لا يَقُومُ لَهُ مثلي، من حيثُ عَظَمِ مقامه في نفسي، لتقدُّمه وحدثي وتبحُّره وضالتي، وإذا كان لِمَثَلِي أن يأخذ هذا المكان فَلِشَيْءٍ واحد فقط وهو أداء واجب الوفاء من جيلٍ لاحقٍ للجيل السابق، وفاء الأبناء للآباء، وأن يسجِّلَ الجيل الجديد لجيل السلفِ واسعَ كرمه، وصدق ثباته، ونبل جهاده، وعظيم قدره، وجيل دوره في تَمَامِ القيام على حفظ الأمانة وحسن تأديتها، والحذب الكامل على مصالح الأمة وأبنائها، والأخذ بأيديهم إلى مَصَافِّ المجد والمكانة اللاتمة في التاريخ.

فالشيخ سليمان بن الحاج داوود بن يوسف - حفظه الله - بالإضافة إلى مكانه المرموق كباحث ومحاضر في التاريخ الإسلامي أفنى جُلَّ عَمُرِهِ المبارك في التنقيب على آثاره والبحث في زواياه وخباياه وتَحْقِيقِ غوامضه ومشكلاته وتصحيح ملامحه - وهذا البحث صورةٌ من ذلك - فإنه بالإضافة إلى ما تقدَّم مجاهدٌ دَوَّوبٌ أفنى عَظَمَ أيامه في عملٍ دائم متصل مداره الإصلاح في دائرة العمل الإسلامي، بمعنى ترسيخ قِيمِ الإسلام ومُثَلِّه، وبعث رُوحه، وتحديد شبابيه ؛ بالالتزام به سلوكاً وعملاً والدعوة إليه فكراً وعقيدة، في فترة كان العدو الصليبي الحاقد قد بلغ ذروة التحجج والاستبداد حين أراد أن يسلم بلاد الإسلام عن الإسلام، ولسان العربية عن أهله، وأن يجعل الأمة

* المصدر : كتاب ثورة أبي يزيد .. جهاد لإعلاء كلمة الله ؛ لسليمان بن الحاج داود بن يوسف، الصفحات 7 - 16 .

الإسلامية من بعد مُسَخِّحاً مُشَوِّهاً ينسى مَجْدَ أجداده ويقصر عن أسياده.

فكان شيخنا الكريم ضمن الرعيل الأول الذي انتدب للقيام بواجبه في بعث حركة التجديد الإسلامي في الجزائر، فكان في صدارة جمعية العلماء، ونَجْمًا من نُجُومها، وقائدًا من قاداتها العُرِّ الميامين .

وكان كذلك وفي ضمن هذا الإطار أحد أركان الإصلاح الإسلامي في وادي ميزاب، وأحد عمُده الراسخة الثابتة، مع مساهمة متصلة في ميدان الكفاح السياسي ثم في الجهاد من أجل التحرير، وقد حَمَلَ عُمُرُه المبارك مِنْ كُلِّ ذلك ما يُنَوِّهُ به الكثيرُ مِمَّنْ لَمْ تتوفَّرْ لَهُ ما توفرُّ للشَّيخِ الفاضل من صدق العقيدة ومضاء العزيمة وصدق الجهاد وطول النَّفْسِ .

وله إلى ذلك دوره في مجال المال والأعمال ما يضرب المثل العملي للحرص على الاستقلال الاقتصادي شأنَ المُجْدِدِينَ مِنْ بني وطنه، كلُّ ذلك إلى دور رجل الأسرة المسلم المثالي الذي يرى أوَّلَ واجباته العظمى نحو أمته أن يَبْنِيَ البيتَ المسلم الذي تترعرع فيه الذرية الصالحة، فتكون هديته الرائعة إلى وطنه المتعطش للجنود الصالحين، ويكونون ذخره للثواب المتصل الذي يرجوه .

ويسعدني أن ألتقي بك أيها القارئ الكريم وبأستاذنا الفاضل في صدر رسالته هذه لأنوّه بقيمة هذا البحث النافع الذي تصدَّى فيه لعلاج قضيتين تاريخيتين هُما ما هُما في خطورتهما وأهميتهما :

• الأولى قضية الدولة العبيديَّة ؛ أمر قيامها وانتصارها في شَمَالِ إفريقيا وعقائد القائمين بها، وتمكنهم من التسلط على هذه الرقعة الكبيرة من الأرض ولتلك الفترة من الزمن، وهذا أمرٌ يحتاج إلى كثير من الدراسات والتحليل لسبر أغوار حركة التاريخ ومعرفة أبعادها .

• ثَمَّ هو يُعالِجُ ثانيًا تاريخ حركة أبي يزيد مَخْلَدِ بن كيداد، وهي أظهر حركات المقاومة الجاهدة التي تَحَرَّكَتْ بِهَا ربوعُ الشَّمالِ الإفريقي، لنفي هذا الثقل الدخيل، وبالرغم من هذا الدور البطولي الرائع الذي انتدب له أبو يزيد، وبالرغم مما حَقَّقَهُ من انتصارات باهرة عصفت بالدولة العبيدية

وكادت تقضي عليها، وأكَّدَتْ لَهَا استحالةَ استتباب الأمر لَهَا في ديار الشمال الإفريقي ؛ بالرغم من ذلك فإن التاريخ في أكثر من وَجْهٍ لَمْ يحتفظ لأبي يزيد بتلك الصورة الناصعة، فَعَرَضَهُ في أَطْرٍ قائمة منفرة، وذلك ما انتدب له الشيخ سليمان ليصححه ويوضحه، ليكشف أولاً أمرَ هذه الدولة الدخيلة، وليُصِفَ هذا النائر المجاهد الذي قام لإزالة هذه الدولة ولتغيير ما جلبته من مناكر وما فرضته من الأباطيل .

بدأ الكاتبُ دراسته بِمُقَدِّمةٍ صغيرة عن أبي يزيد، ثم قَسَمَ بحثه إلى شطرين رئيسيين:

﴿أما الشَّطْرُ الأوَّلُ من هذا البحث فهو يَكشِفُ للقارئ عن حقيقة العبيديِّين ؛ أَصْلِهِمْ وتصوراتهم وأفكارهم وأعمالهم التي جاءت تتحدى مألوف المسلمين وما توارثوه من عقيدتهم الصحيحة ودينهم القويم وسيرة السلف الطاهرة النقية .

جاء بِهذه الدولة عناصرٌ مشبوهة الأصل، وجاءت بتصورات خالفت عقائد الإسلام، وسَوَّغَتْ لِهذه العقائد الخبيثة بتغيُّراتٍ بَنَتْها على ما أَسَمَتْهُ عِلْمُ الباطن !! ودعوى نسبتها إلى علم الأئمة !! فَجَمَلَتْها كلُّ ما شاءت من الباطل، ثم ما زالوا يباطلهم ذلك حتى حَمَلُوهُ على الأمة وحَمَلُوها عليه بقوة السيف ومظاهرة الأعوان . وهذه صورة لا يزال التاريخ يكرِّرها، ولا يزال ينال الأمة من مكروهاها في فترات مختلفة من التاريخ !!

والتنبُّه إلى جذور هذه الظاهرة وأبعادها وكشف خباياها وأصولها من أساسيات الجهاد الإسلامي، ومن جلائل أعمال الفكر الإسلامي . إنَّ التصدِّي لكشف هذه الأفكار الشاذة والضلالات الزائفة ووَضْعِها في موضعها الصحيح من تاريخنا من أوجب الواجبات تجاه هذه الأمة ؛ لتصحيح تاريخها أولاً، ولوضع أجيالها على الطريق الصحيح لِمَا يَسْتَقْبِلُها من الزمان، وحتى لا يتكرر عليها مآسي هذه النماذج الكريهة .

وقد بَدَّلَ أستاذنا الفاضل جهده في إظهار حقائق الدولة العبيدية في

تصوراتها التي تصادم أساسيات العقائد الإسلامية، وفي وسائلها البشعة في فرض تلك التصورات على الناس؛ في التنكيل بقيادات الأمة وقتل العلماء والصالحين من دعاة الإسلام الحق، ومزاولة صنوف القهر والبطش للتمهيد لأمرهم.

وقد نال الأمة من شرور تلك الموجة أشد الجهد والبلاء؛ سواءً بما نجَم من شرور القرامطة وفتنتهم بالمشرق، أو ما اتصل على المغرب الإسلامي من شرور العبيديين وفتنتهم، والحركتان من أصل واحد ومصدر واحد، ولكن الله سبحانه وتعالى وقى أمة الإسلام من هذا الشرِّ؛

- أولاً: بما رَسَخَ وَثَبَتْ من عقيدة الأمة، ممَّا لا يناله التبدُّل والتغيير لاستناده إلى نِصَاعَةِ الْحَقِّ ووضوحه، وإلى ما تُقَرَّرُهُ الْأُصُولُ الصَّحِيحَةُ الثَّابِتَةُ لِهَذَا الدِّينِ الْقِيَمِ كما جاء به الرسول الكريم ﷺ، وكما بلغه السلف الصالح، ممَّا اعتمد على كتاب ناطق وسنة ماضية وسيرة طاهرة نقية. وستظل هذه الْأُسُسُ دَرْعَ هذه الأمة ضد كل التصورات الباطلة، والأفكار الضالة التي يلتبس أصحابها إقحامها على المسلمين وعقيدتهم الصحيحة.

- وثانياً: بتلك الانتفاضة التي تحرَّكَتْ عَمَلِيًّا لتغيير هذا الباطل واحتثاث جذوره من الأعماق معتمدة على القيادة الحكيمة الجادة والجهاد المتصل الدؤوب والعزيمة المصممة الماضية.

❁ وهو ما بيَّنه الشَّطْرُ الثَّانِي من هذا البحث القيم، فهو تحليل دقيق لحركة الجهاد الرئيسية التي تصدَّتْ لتغيير منابر العبيديين، ولتصحيح مسار الأمة وتحليصها من تلك الشرور التي استفحلت واستعلنت في ظل حكمهم، وقد قاد هذه الحركة أبو يزيد مَخْلَدُ بْنُ كِبَادِ الْإِبَاضِيِّ، واستطاع أن يَجْمَعَ حوله مشاعراً الأمة كاملة، وأن يُوَحِّدَهَا تحت رايته، وأن ينتصر بها للعقيدة الصحيحة والسيرة الحميدة والدين القيم، وقد جمع أبو يزيد أنصاره من أحرار الأمة ومذاهبها، لم يتخلف عنه أحد، وكانت هبة أَرْجَعَتْ لِلْحَقِّ هَيْبَتَهُ، وأزعجت الباطل أيما إزعاج.

وقد كادت أن تَجَحَّتْ جُدُورَهُ، وهي إن لم تفعل فقد أفهمت أصحاب هذا الضلال أن لا مجال لهم في هذه الديار من بلاد الإسلام، فرحلوا عنها بعد فترة ليقيموا دولتهم في مصر، ورحلت معهم عقائدهم وسيرتهم، وكانت منها في مصر وديارها أباطيل وأضاليل، كان أظْهَرُهَا ما سَجَّلَهُ التَّارِيخُ مِنْ سِيرَةِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ، ولكن الحق الذي أذاب باطلهم في شمال إفريقيا أزهق ببقية ذلك الباطل في مصر وغير مصر، وصار كل ذلك قَصَصًا يرويها التاريخ عبرة وذكرى.

وقد أفادنا أستاذنا في استقصاء دقيق عن مسار حركة أبي يزيد وجهاده، وأبْرَرَ لَنَا صُورًا جَلِيلَةً مِنَ الْبَطُولَةِ الْحَقَّةِ وَالْجِهَادِ الصَّادِقِ، ثم تجاوز ذلك إلى زُنْدَةِ بَحْثِهِ وَغَايَتِهِ، فَأَزَاحَ الْكَثِيرَ مِنْ غِبَارِ التَّعَصُّبِ عَنْ حَرَكَةِ أَبِي يَزِيدٍ، فَأَزَالَ مَا عَلَقَ بِهَا مِنْ دَعَايَاتٍ مُعْرِضَةٍ أَرَادَتْ انْتِقَاصَ هَذَا الْجِهَادِ وَالتَّقْلِيلَ مِنْ شَأْنِهِ، فَانْسَبَتْ فِيهِ إِلَى أَبِي يَزِيدٍ مَا يَشِينُ جِهَادَهُ وَيُظْهِرُهُ فِي مَظْهَرٍ مُنْفَرِّ مُسْتَهْجَنٍ، وَقَدْ أَفَادَ وَأَجَادَ.

ولعمري إن التاريخ الذي يُدَقِّقُ فِي سِيرَةِ أَبِي يَزِيدٍ بِمَا يُلْصِقُ بِهِ مَا يَخْدُشُ هَذِهِ السَّيْرَةَ وَيُشَوِّهَهَا لِيَتَجَاوَزَ لَعْنَتَهُ عَنِ الْكَثِيرِ مِنَ الْمَعْرَاتِ، فَلَا يَرِيهَا إِلَّا رَوَايَةً عَابِرَةً، وَإِنْ رَوَاهَا فَبِدُونِ نَكِيرٍ أَوْ تَنْدِيدٍ.

ولا تتعرض لدعايات أعداء حركة أبي يزيد، فالأمر فيها ظاهر واضح، والسبب فيها الغيظ والعصبية، وقد كشفها أستاذنا الكريم الشيخ سليمان بن يوسف بما لا مزيد عليه. ولكني أريد أن أشير هنا إلى أن مصادر الإباضية نفسها حطبت في ذلك الحبل، وحزرت على نفس سبيل المصادر الأخرى، فنسعت على أبي يزيد، ولا بُدَّ من وقفة عابرة هنا، فنحن لا ننفي أن تَوَاكَبَ حَرَكَةٌ ضَخْمَةٌ كحركة أبي يزيد بعض الهنات، ولكننا نستبعد أن تبلغ تلك الصورة المهولة الصارخة التي سجَّلتها أقلام المؤرخين.

ويخطئ كل الخطأ من يكلف أبا يزيد جيشاً كجيش العمرين أو جنداً كجند أبي الخطاب عبدالأعلى أو أبي منصور إلياس، وهي الصور التي يضع

المؤرخ الإباضي مقياسه للصراع بين أبناء الأمة على مثالها الفريد النادر .

فجيش الإباضية في إنكارهم على دول الجور سواء بقيادة أبي الخطاب ومن جاء بعده ومن سبقه وأبي منصور ومن تبعه كانوا يلتزمون التزاماً دقيقاً بسيرة الصحابة، اتصلت عليه سيرتهم فورثها الخلف عن السلف، والتزمت بها أجيالهم فلا يُفَرِّطون فيها ولا يقصرون عنها .

فقد كانت سيرتهم - رحمهم الله - في حروبهم لأهل القبلة ألا يتبعوا مُدْبِرًا ولا يُجْهِزُوا على جريح ولا يأخذوا سلبًا ولا سبيًا، نزهوا أيديهم عن كل ذلك في التزام صارم، وإنما كان همهم إبطال الجور وإقامة الحق، وليس جمع الغنائم والأسلاب أو الاتساع في الملك والدولة، وهو مسلك مثالي قَصُرَتْ عنه الهِمَمُ بَعْدَهُمْ، ومضى مثلاً شروداً في التاريخ لا يتكرر بيسر، وقد جاء إجماع من المؤرخين في نقل تلك الصورة الناصعة العظيمة .

فأبو الخطاب في حربه لورفجومة قد غادر قتلى الأعداء في المعركة لَمْ يَمَسَّهُمْ سوءٌ غير السيف !! حتى قال فيهم من رآهم : « كأنهم رُفُودٌ » !! لَمْ يَصِبْهُمْ سَلْبٌ أو نَهَبٌ، وَلَمْ يَصِبْ زُرُوعُ القومِ وأجنتهم وأشجارهم ودورهم شيءٌ من معرة الجيش، وكان ذلك شأنه في كل حروبه، فهو جيش رَبَّتْهُ التقوى ووقد أهله الورع .

وأما أبو منصور إلياس فقد قاد حملةً تاديبية صدَّ فيها جموع ابن طولون التي جاءت إلى طرابلس تعيثُ فيها فساداً، فردَّ ذلك الجيش الغازي، وبقي في ميدان المعركة بعد هزيمة ابن طولون ثمانمئة حملٍ ذهباً لَمْ يَمَسَّهَا أحدٌ من جند أبي منصور !!

فهذا جيشٌ ما جاء في طلب الدنيا ولو كانت ذهباً أصفرَ رَنَانًا مُباحًا، ولكنه جاء ينتصرُ لله رجاءً ما عنده، وبعد ذلك يستوي الذهبُ والترابُ، وهذا أيضاً جيشٌ رَبَّتْهُ التقوى ووقده الورع. وهي طلائعُ مُصَفَّاةٍ مُصَفَّاةٍ لا يَقُومُ بها التاريخُ دائماً.

ولعل الذي انتقد سيرة أبي يزيد من مؤرخي الإباضية يُريد أن يُكَلِّفه ما

تَكَلَّفَ لَهُؤْلَاءَ - وَحَقُّ لَهُ - وقد قال أبو القاسم مَخْلَدُ بن يزيد أستاذ أبي خَزْرُ مَعْلَقًا على حروب أبي يزيد مخلد بن كيداد : « لقد فَتَحَ فيهم أبو يزيد بَابًا لو أَحْسَنَ السَّيْرَةَ » وهو كلامٌ فيه إعجابٌ وعتابٌ، وتقديرٌ وانتقادٌ، أما أبو يزيد بن كيداد فقد اعتدَرَ لنفسه وتلا قولَ الله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة/106] وتلك معرةٌ جُنْدٌ مُخْتَلَطٌ، ليست كتلك النماذج التي أشرنا إليها من قبل، وإن هي أساءت فليس على تلك الصورة المهولة التي زَيَّنَهَا الرُّوَاةُ وَتَفَنَّنُوا فِي عَرْضِهَا .

ولماذا أُطِيلُ عليك أخي القارئ؟ فقد كفانا أستاذنا الكريم وشفَى في هذا البحث القيم الذي لا يستطيع أن يَقُومَ بمثله غيره، فهو كما قال فيه بَحَقُّ رَفِيقُهُ في الجهاد وصنوه في العلم؛ مؤرِّخُ الجزائر الكبير؛ الأستاذ أحمد توفيق المدني : « ... لكني يستطيع باحثٌ أن يُخْرِجَ للناس مثل هذا الكتاب الجليل يجب أن يكون مُتَحَلِّيًا بثلاثِ خِصَالٍ ما اجتمعت في واحدٍ إلا نادراً :

أولها : الاطلاعُ الواسع والتحرِّي العميق .

وثانيها : الفكرُ الناقد والتحليل المنطقي السليم .

وثالثها : الشجاعة والإقدام، والجُرأةُ على قول كلمة الحق والدفاع عنها مهما كانت مخالفةً لِمَا يعتقد أكثرُ الناس .

وأخي وصديقي العلامة البَحَاثَةُ الشيخ سليمان بن داوود قد جَمَعَ اللهُ فيه هذه الخصالَ الثلاث التي جَعَلَتْهُ يُقَدِّمُ للناس مثل هذا البحث الجليل .

ولن أزيد شيئاً بعد كلمة المؤرخ الجليل أكرمه الله، ولكنني أهنئُ أستاذنا العزيز بهذا الجهد الكريم وأدعوه إلى المزيد، وأسأل الله أن يبارك في عمره وعمله وأن يُوفِّقَهُ إلى جلائل الأعمال .

وأحرُّ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عمرو خليفة النامي

نالوت - جبل نفوسة / ليبيا

1. من كتابات النامي (تقديم فكري)

(و تقديم لكتاب « مواقف فكرية »)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد؛ فهذا الكتاب الذي أقدّم له اليوم هو مواقف فكرية متنوعة، سجّلها كاتبها الأستاذ محمود الناكوع في فترات متفاوتة من الزمان، استغرقت فترة نشاطه القصير في عالم الصحافة، وقد سجّل فيها مواقفه التي أملتّها عليه عقيدته في قضايا متعددة في هذه المقالات الرصينة المتنوعة، التي تعرض في إيجاز غير مُخِلٍ لأهم جوانب الفكر الإسلامي المعاصر.

ولعلّ الأستاذ محمود الناكوع هو خير مَنْ يكتب مثل هذا الكتاب، فهو خريج كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية، وهو إلى ذلك قارئٌ جادٌ، وباحثٌ صابرٌ، أتاحت له الفرصة ليتعرّف عن قُرب بثقافة الغرب في لغتها، وأتاحت له الفرصة للوقوف عليها في جوانبها جميعاً، سلبيّاً وإيجابياً؛ كما تُصدّرُ إلينا، وكما هي عليها في بلادها؛ سواء في بريطانيا، أو في وريثتها الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك عن قُرب ومعاناة شخصية، وقد هيأ له ذلك أن يرى الصورة واضحةً، وأن ينقل كذلك رأياً واضحاً جليلاً في علاقتنا بالغرب في مجالات الحياة المختلفة.

وهو إلى ذلك يملك من أصالة الفكر والقيم التي ترسّخت عنده بحكم تربيته ونشأته الأولى ما يجعل من فكره منهجاً ثابتاً يعيش به ويعيش له، ويخرج عن أن يكون هويةً عابرةً أو نشاطاً هو من بعض الترفّ العقلي الذي يعيش له بعضٌ من يلبس طيّسًا الفكر في هذه البلاد، هو باختصارٍ: صاحبٌ رسالةٍ وصاحبٌ فكرةٍ.

• المصدر: كتاب «مواقف فكرية» لمحمود الناكوع؛ الصفحات 11-16. والاعتماد هنا على طبعته الأولى الصادرة عن دار الفتح.

ونحن في هذا المجال - مجال الفكر - نواجه مشكلةً مُعقّدة تُفرض نفسها بإصرارٍ يستدعي أن يكون للمفكر المسلم موقفٌ في كل القضايا التي يعيشها الإنسان، فضلاً عن المسلم في أي بقعة من الأرض يعيش.

والموقف المتميز الذي يقيس الأشياء بميزان الإسلام هو السلاح الأول في معركة الإسلام في هذا القرن، وعُدته الأولى لانتصاره المنتظر في حياة الأجيال في المستقبل.

فلا بُدّ من وضوح الغاية أمام الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة، ولكي تتضح الرؤية لا بُدّ من مواقف فكرية واضحة تُحدّد معالم المعركة وخط السير لأصحاب الفكر الإسلامي في دوامة المعارك الفكرية المتصلة التي لم يَحْمَدْ أوارها منذ بدأ قديماً في صراع الأفكار المعادية للإسلام؛ سواء منها ما كَبُرَتْ نارُهُ الدياناتُ الخرفة من يهودية ومسيحية أو ما أَرْتَتْ لَهَبَهُ نَعْرَاتُ الشُعوبية في القدم والحديث، أو ما تَلَوَّنَتْ به أساليب الاستعمار في الجديد والقدم.

وبداية الطريق هو أن نعترف أنه قد كان لكلّ هاتاه الأفكار المعادية للإسلام منذ القدم يدٌ طولى في محاولة توجيه الاتجاه الفكري العام للأمة المسلمة؛ بما أفلح - في كثيرٍ من الأحيان - في حجب التصوّر الإسلامي الصحيح؛ ولو إلى حين.

وفي العصر الحديث كان لهذه المعركة الضارية مدىً شديداً البُعْد، قد أثر في صيغ أجيال كاملة متتالية بصيغة الفكر المعادي للإسلام، أو المنحرف عنه، أو المنحرف له.

زاد في تأكيد هذا الأمر أن ديار الإسلام جميعاً وقَعَتْ لفترةٍ أو لأخرى تحت السيطرة المباشرة لأعداء الإسلام، فاتجهوا منذ أول عهدهم إلى احتثات جذور التصوّر الإسلامي والفكر الإسلامي من حياة المسلمين ومعاهدتهم، وصحافتهم ووسائل إعلامهم، وأسَّسوا أجيالاً تحذو حذوهم، وتتأسى بسيرتهم، فكان ذلك هو شأن هذه الأمة في أكثر أفكارها، حتى لقد أصبح

الفكر الإسلامي غريباً فيها؛ قد حَصَرَ نفسه أو حَصَرَتْهُ الأفكارُ الغازية في أَضيقِ نطاقٍ .

وكان نصيبُ البلاد العربية - وهي قَلْبُ هذه الأمة ومادتها، وورثها وبيان الإسلام الصحيح فيها، ومعدل لغة القرآن المترجمة عن معانيه وموازينه - كان نصيبها من القهر والإخضاع لمخططات التحريف أكبر نصيبٍ وأضراره .

زاد فيه أن هذه البقعة من الأرض - وهي مهبط الهداية الربانية ومهد الإسلام ومَنَزَل الوحي - قد دخلت في نطاق أطماع اليهودية العالمية في عملها الجاد الطويل لإقامة دولة إسرائيل .

وكان هذا الأمر - بما استتبعه من تخطيط متصل، وعمل دائم لتعطيم عنصر المقاومة الأصيل في هذه الأمة؛ وهي العقيدة الإسلامية الصحيحة، والتصور الإسلامي السليم - هو هدفاً مرصوداً عمل له اليهود، ومن يدور في فلكهم في العداوة للإسلام والكيد له ولأهله، منذ البدء ولا يزال حتى اليوم، مُتَّخِذِينَ لذلك ما أمكن من الوسائل، مستهدفين كل المجالات، حتى كانت نتيجة ذلك العمل الدائب المتصل أجيالاً من هذه الأمة مسوخة التصور، غائمة الرؤية، منحرفة الفكر، يُحسُّ فيها المفكر المسلم غربة حقيقية .

وهذا في الواقع ما جعل هذه الأمة تنقاد في مسيرتها التي أعقبت معركة الاستقلال في غالب ديارها في مناهات من الضياع السياسي والفكري، أعقبتها الهزائم المتتالية وحرمتها من أن تلعب دوراً حقيقياً ذا وزن في قيادة أمم الأرض، فهي محسوبة عند أعدائها في عداد الركب المتخلف، يتطوعون برسم خط سيره، غير مُحْتَفِلِينَ به ولا آبهين لأمره .

بل ويوجد في أبنائه وساسته من يلهث وراء هؤلاء الأعداء يلتمس عندهم العون والسند، ويتقرب إليهم بتنفيذ سياساتهم وإرضائهم سرّاً وعلناً، ومع كل ذلك يحتفي أنثر العقيدة في هذه الأمة وأجيالها، فتعجز عن أن تقول لهم اعترفوا . ويسخرون بها إن هي قالتها على لسان ابن بار أو في جهاد مؤمن

صادق .

وبداية الطريق في تصفية ميراث الفكر المنحرف المشوه الذي مسخت به قوى الأعداء فكر هذه الأمة وتصورتها هي أن يُوجَد بين أبناء هذه الأمة من يملك من العزم والتصميم وصدق العقيدة ما يُمكنه من أن ينتشل نفسه من المستنقع وأن يُطهرها من أدراج كل تصوّر دخيل، وأن يتخذ من العدة والأداة ما يجعله «لسان» الفكر الإسلامي الأصيل الذي يزن الأمور بمقياسه الدقيق ويقبسه على منهجه القويم .

وسوف يتمثل دور هذا النفر في «مواقف فكرية» لا تلبث أن تصبح «تياراً» يمهّد ببيانه «لحركة» حية في جسم هذه الأمة، تُجدد فيها ما تآكل من خلايا جسمها، وتزودها بالدم الجديد الذي يهيئها لدورها الذي أعدّها الله له، وكلفها به؛ دور قيادة العالم والشهادة عليه ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة/143] .

والشهادة على الناس - كل الناس - هي تليغهم رسالة الله بياناً، وإقامة الحجّة عليهم عملياً، في بناء عضوي حي يعيش في صلّة بالله ودين الله، على سَمَتِ ذلك المجتمع الأول الذي أسسه رسول الله ﷺ، فأدى دور الشهادة والقيادة في العالم عندما عاش هذا الدين «بياناً» و «حركة»؛ وفق منهاج الإسلام كما حفظه وحدده كتاب الله، وسنة رسوله عليه السلام، وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم .

وأنا اليوم أستشعر الغبطة الكاملة وأنا أقدم للقارئ الكريم هذا السفر النفيس؛ الذي يعرض هذه المواقف الفكرية المختلفة لأحد هؤلاء النخبة من أبناء الإسلام، ممن أفلحوا أن ينتشلوا أنفسهم من «مستنقع» الفكر المضلل، وأخذوا على عاتقهم - مستعينين بالله وحده - هداية أقوامهم إلى النور الذي استضاءوا به، والأخذ بأيديهم إلى شاطئ السلامة، في رحاب الفكر الإسلامي القويم ومنهجه المستقيم .

فهااته طلائع النصر لفكر الإسلام قد لاحت هنا، في تراب هذا الوطن العزيز، وحسب أخي محمود شرقاً أن يكون من رؤاد هذه الطلائع .

الدكتور عمرو خليفة النامي

الاثنين 26 جمادى الأولى 1391هـ

الموافق 19 يوليو 1971م

وقد استطاع الأخ الأستاذ محمود الناكوع في كتابه هذا أن يطرح مواقف فكرية متعددة، شملت ميادين متعددة، وتعرضت لقضايا متعددة، هي بعض حصيلة جهد متصل مبارك في ميدان الصحافة .

وقد كان مجال الصحافة في هذه البقعة من أرض الإسلام مرتعاً للفكر المضلل من كل نوع ولون، ومجالاً لهواة الكلام المتهافت الذي يهتم بتسويد الصفحات غالباً، ونادراً ما يعيش لفكرة أو رسالة، وأقلها هو كان يعيش صوتاً للعقيدة الإسلامية في قضايا الإسلام الحية .

وكان للأستاذ محمود - مع نفر آخر قليل - شرف الريادة في هذا الميدان، نرجو أن تكون جهودهم علامة البدء الصحيح في هذا الطريق الطويل، ومنطلقاً للحيل المرحو الذي يصنع منار الفكر الإسلامي، الذي نأمل أن يقود هذه الأمة إلى مكائها في التاريخ، وقبل ذلك إلى قبوض الرحمة الربانية في الحياة، وفق منهج الله في الأرض والسعادة به في الآخرة .

وقد كنت أود أن أقول شيئاً عن محتويات الكتاب لولا أنني أفضل أن أدع للقارئ فرصة ليكون فكرته الخاصة، وأنا شديد الإعجاب بهذا المنحى في التأليف الذي يعرض لقضايا عديدة بصورة مركزة ؛ تتجنب التفصيل الطويل الذي يضيق به غير الدارس المتخصص، وتتخلص من السطحية الضحلة التي يعافها القارئ الجاد .

وأنا إذ أرحب بهذا الجهد المبارك في مكتبتنا العربية أجدني شديد الأمل في المستقبل المشرق الذي ألمح آفاقه الميرة في كلمات الأستاذ «محمود الناكوع»، وفي عسارة الفكر المؤمن النظيف الذي دفعته إلى كتابتها وألهمته صياغتها .

ولعله من الذكريات التي سوف أعتز بها دائماً أن يكون هذا الكتاب أول ما أقرأ بعد غربة طويلة في ديار الغرب، وفي معقل من أهم معقل الاستشراق، وأن تكون هذه الكلمات أول ما أكتب كذلك، لأضيف صوتي المتواضع مع أخي الأستاذ محمود الناكوع معلناً معه نهاية الفكر المضلل، ومبشراً بفجر الإسلام المشرق .

1. من كتابات النامي (مقال)

(ز) مَهْرُ الحَضَارَةِ الغَرِيبَةِ •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَوْ تَحَيَّلَتْ الحضارةُ عادةً حسناءً قد تعرَّضَ لها الخطَّابُ، كُلُّ يُرِيدُ أَنْ يَرْجِعَ بِهَا إِلَى دَارِهِ ؛ فَمَاذَا كُنْتَ تَمَهَّرُ تِلْكَ الحَسَنَاءَ البَارِعَةَ الجَمَالَ ؟

وإذا كانت المخطوبةُ هي الحضارةُ الغربيةُ فهل يُعَالِي أهلُها في مَهْرِهَا ؟ وهل يَبْلُغُونَ به حدَّ المستحيلِ والشَّطَطِ ؟

ولكنْ دَعْنَا - أحي القارئ - من التساؤلِ والافتراضِ، فالْمَهْرُ الذي طَلَبَهُ القومُ قد صرَّحَ به أحدهم منذ وقت بعيد، وذلك ما قاله المستر ويليم جيفورد بالكراف . قال المستر الهالك : « متى توَارَى القرآنُ ومدينةُ مَكَّةَ عن بلادِ العربِ يُمكنُنَا عندئذ أن نرى العربيَّ يتدرَّجُ في سبيلِ الحضارةِ التي لا يُبعِدُهُ عنها إلا مُحَمَّدٌ وكتَّابُهُ » .

وذلك ما يَشْتَرِطُ القومُ، وهي كلمةٌ قد لَفَّهَا الزمنُ منذ مدة، و لكنَّها كلمةٌ يجب أن يتدبَّرَ كُلُّ مسلمٍ كُلَّ حَرْفٍ فيها، وهي كلمةٌ كَفِيلَةٌ كذلك أن تَفْتَحَ أمامَ أعينِنَا مغالِقَ أسرارِ الصراعِ الدائمِ الدائبِ بين الإسلامِ وحُصُومِ الإسلامِ، وهي كلمةٌ حَقِيقَةٌ بأن تَرْجِعَ الكثيرُ من أبنائنا إلى صوابهم في كثيرٍ من أفكارهم وأطوارهم .

ونحنُ هنا سوف نُشيرُ إلى رؤوسِ مواضعٍ لبعضِ مظاهرِ ذلك الصراعِ مِنْ وَرَاءِ ستارِ تلكِ الكلماتِ ...

• المصدر : صحيفة «العلم» اللبية ؛ في عددها الصادر بتاريخ 28 / 10 / 1968 م . وقد أمدني به أحدُ الإخوةِ مرقوناً، فاجتهدتُ في تصحيحه و ضبطه، وإن كانَ أَضَلُّ لا يَخْلُو من أخطاء .

فأولاً: إن الحقيقة التي تركزت في أذهان أعداء الإسلام - بعد خيرة طويلة بشؤونهم، ودراسة متعمقة صابرة لأُمُورِهِ - هي أن سِرَّ قُوَّةِ هذه الأمة وتَرَابُطِهَا وتَوَاتُقِهَا وانتظامَ أواصرِ الأُخُوَّةِ الكاملةِ بين أجزائها هو الإسلام، وأن جَمَاعَ أمرِ الإسلامِ وأصلَ منْهَاجِهِ ودستورَ نظامِهِ هو القرآن، وأن عَلِيَّهِمْ أولاً لتفتيتِ هذه القوةِ وزعزعةِ هذا الجِدارِ أن يَقْضُوا على هذا الكتابِ . ولذلك فإنَّ مُحَطَّطَ النُشْفِ الشاملِ لِأمةِ الإسلامِ - كما يَحْدُوهُ هذا الخبيثُ ومقالُهُ - يَسْتَدْعِي أولاً أن يتوَارَى القرآنُ عن أهله .

وقد سَلَكَ أعداؤُنَا سُبُلَهُمْ إلى هذا الأمرِ بعدما بذلوا جَهْدًا للتعرفِ على كِتَابِ هذا الدينِ ولُغَتِهِ وأدبِهِ وفِكْرِهِ وحَضَارَتِهِ .

والمُطَّلَعُونَ على بواطنِ الأُمُورِ يَعْرِفُونَ تلكَ الجُهُودَ الجَبَّارَةَ التي بَدَلَتْهَا أجهزَةُ الأستِشْراكِ والأستِعمارِ في دراسةِ الأدبِ العربيِّ واللغةِ العربيةِ والثقافةِ الإسلاميةِ، وَيَعْرِفُونَ الجُهُودَ الجَبَّارَةَ التي بَدَلَتْ في سبيلِ نشرِ التراثِ العربيِّ وبعثِهِ والتنقيبِ عنه وإزالةِ العُبارِ عن كنوزه .

والمعاقِلُونَ يعرفون كذلك أن كُلَّ ذلكِ لَمْ يَتِمَّ لأنَّ العَرَبَ كانَ يُفْتَشُّ عن دينِ لِيَعْتَنِقَهُ، أو لُغَةً لِيَلْتَرَمِّمَهَا، أو أدبَ يَقْتَبِسُ منه، و لكنْ كُلُّ ذلكِ يَتِمُّ لِيَتَعَمَّقَ الأعداءُ في معرفةِ هذه الأمةِ التي يَتَرَبُّصُونَ بِهَا الدوائرَ، و يُعدُّونَ العُدَّةَ لاسْتِصْالِ شَأْنِهَا، والقضاءِ على حضارتها، وتدميرِ وُجُودِهَا، وَمَسْخِ وَجْهِهَا الإسلاميِ الأصيلِ .

وقد بَدَلَتْ أجهزَةُ الصَّلِيبِ والصهيونيةِ الكثيرَ من الجُهُودِ للحيلولةِ بين المسلمينِ وقُرْآنِهِمْ، بِمَا أُتِيحَ لَهُمْ من فرصةٍ للسيطرةِ العسكريةِ والسياسيةِ على هذه البلادِ في فتراتِ الاحتلالِ والانتدابِ على السواءِ . وكانت لتلكِ الجُهُودِ مَظَاهِرٌ عِدَّةٌ يستطيعُ الإنسانُ أن يُبَيِّنَ إلى بعضها .

على أن أخطرَ طريقِ سَلَكَهُ هؤلاءُ هو تَحْمِيلُ آلةِ الهُدْمِ لِمَنْ يَسْهَلُ عليهم ذلكِ، ولا يُسْتَنْكَرُ منهم الأمرُ في عُنفِ سافِرٍ أو عِدَاءٍ ظاهرٍ . و كان

أَنْ حَمَلُوا آلَةَ الْهَدْمِ لِأَسْمَاءِ مُسْلِمَةٍ، وَظَهَرَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَصْوَاتٌ تَدْعِي أُسْطُورَةَ الْقُرْآنِ، وَتُشَكِّكُ فِي حَقَائِقِ الْوَحْيِ، وَتَزْجَعُ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِ مَصْدَرِهِ الْعُلُوبِيِّ الْجَلِيلِ، مُدْعِيَةً تَحْكِيمَ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ ادْعَاءَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ... إِنَّمَا هَدَفُهَا هُوَ التَّشْكِيكُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَزَعْرَعَةُ عَقِيدَةِ الْإِسْلَامِ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ .

لقد برزَ هذا الصوتُ عندَ المستشرقين أوَّلَ مَا بَرَزَ ؛ على اختلافٍ في اللَّهجاتِ وأَساليبِ وطرائقِ العَرَضِ، وأخذَ مسلكَ الدُّسِّ أحياناً، والتصريحِ أحياناً أخرى . ثم حَمَلَ طه حسين¹³² - وهو صاحبُ اسمِ إسلاميٍّ - رايةَ الْهَدْمِ فَأَحْسَنَ حَمَلَهَا، وَمَضَى بِهَا كَمَا يُرِيدُ أَسْيَادُهُ، فَكَانَ - كَمَا يُرِيدُونَ - أَكْثَرَ جُرْأَةً وَجَسَارَةً .

وخرَجَ على النَّاسِ بكتابه « في الشُّعْرِ الجاهلي » الذي كان يُلقِيهِ محاضراتٍ على طلبة كلية الآدابِ في الجامعةِ المِصْرِيَّةِ حينذاك . وفي نطاقِ حديثه عنِ الوضعِ في الشعرِ الجاهليِ قَرَّرَ أَنْ كَثِيرًا مِنْ حَقَائِقِ الْقُرْآنِ مَوْضُوعَةٌ أَيْضًا... وكان ذلك أشدَّ ما تَعَرَّضَ لَهُ الْقُرْآنُ مِنْ مَحَاوِلَةِ الطَّعْنِ فِي قِدَاسَتِهِ وَصِحَّةِ نَصِّهِ الذي لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ .

وقد أثارَ ذلك ضِجَّةً كَبِيرَةً دَافِعَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ عَن كِتَابِهِمْ، وَتَرَكَ لَنَا إِنْتَاجًا رَائِعًا مِمَّا تَفَتَّتْ بِهِ قِرَائِحُ أَدْبَاءِ الْإِسْلَامِ وَصَرَّتْ بِهِ أَقْلَامُهُمْ، وَكَانَ الْفَتَى الْمُبْرَزُ فِي حَلْبَةِ ذَلِكَ الصَّرَاعِ هُوَ أَدِيبُ الْعَرَبِيَّةِ الْمَعَاوِرِ وَمُنْشِئُهَا الْغَدِّ الْمُنَافِحِ الصَّوْأَلِ عَن تَرَاثِمِهَا الْأُسْتَاذُ مِصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعِيِّ¹³³ رَحِمَهُ اللهُ، فَقَدْ كَانَ - جِزَاءَ اللهِ عَنِ الْإِسْلَامِ كُلِّ خَيْرٍ - أُمَّةً وَحَدَهُ فِي ذَلِكَ الصَّرَاعِ الصَّاحِبُ .

وأنا أُحِبُّ أَنْ أَوْصِيَ شِبَابَنَا الْمُتَّقِفَ بِقِرَاءَةِ جَمِيعِ كُتُبِهِ، وَمُتَابَعَةِ ذَلِكَ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَيْهِ ؛ حَتَّى يَأْلَفُوا بَيَانَ الْعَرَبِيَّةِ الْأَصِيلِ، وَتَسْتَسِيغَ أَدْوَابَهُمْ أُسْلُوبُهَا الرَّفِيعِ الَّذِي جَلَّاهُ الرَّافِعِيُّ فِي سِلَاسَةٍ وَ قُوَّةٍ .

132- طه حسين (ت1393هـ / 1973م) ؛ انظر ترجمته في الأعلام للزركلي .

133- مصطفى صادق الرافعي (ت1356هـ / 1937م) ؛ انظر ترجمته في الأعلام للزركلي .

وأشدُّ من ذلك ما استطاعَ أَنْ يَنْفُذَ بِهِ الْاسْتِعْمَارُ إِلَى الْمَنَاهِجِ التَّعْلِيمِيَّةِ، فَاسْتَحَدَّتْ أَسَالِيْبَ قَلَلَتْ مِنْ مَحْصُولِ الطَّلِبَةِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَأَنْقَصَتْ مِنْ حَصَصِ الدِّينِ، وَحَصَّرَتْ اللُّغَةَ فِي دِرَاسَاتٍ شَكْلِيَّةٍ مَحْدُودَةٍ، فَكَانَ حَظُّ الْأَجْيَالِ الْمُتَعَابِقَةِ مِنْ نِصُوصِ دِينِهِمْ وَقُرْآنِهِمْ وَلُغَتِهِمْ وَأَدَبِهِمْ وَمَا يُشَكِّلُ تَقَاتِفَهُمْ الْمُتَمَيِّزَةَ مَحْدُودًا ضَعِيفًا .

وكانَ مِنْ حُجَجِهِمُ الْمُتَهافتةُ أَنَّ ذَاكِرَةَ التَّلْمِيذِ الصَّغِيرِ تَنْوُءُ بِكُلِّ ذَلِكَ الْعَبَاءِ الثَّقِيلِ، وَيَحْتَجُونَ بِأَنَّ حَفْظَ النَّصِّ دُونَ فَهْمِهِ ضَرْبٌ مِنَ الضِّيَاعِ وَالْعَبَثِ، وَقَصْدُهُمْ تَفْوِيتُ الْفُرْصَةِ الذَّهَبِيَّةِ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ وَلُغَتِهِ ؛ حَتَّى يَنْشَأَ الْجَلِيلُ بِمَعزَلٍ عَنْهُمَا .

والجميعُ يعلمونَ أَنَّ اسْتِخْدَامَ أَيِّ آلَةٍ يُعِينُ عَلَى صَقْلِهَا وَتَمْيِينِهَا، وَأَوَّلُ هَذِهِ الْآلَاتِ الذَّاكِرَةُ، وَإِنَّ مَخزُونَهَا الَّذِي يَتَحَصَّلُ عَلَيْهِ التَّلْمِيذُ فِي فِتْرَةٍ لَمْ تَكْتَمِلْ فِيهَا مَدَارِكُهُ الْعَقْلِيَّةُ بَعْدَ هُوَ الرِّصِيدُ الَّذِي تَعْمَلُ فِيهِ هَذِهِ الْمَدَارِكُ مُسْتَقْبَلًا، حَيْثُ تَكُونُ فِتْرَاتُ الدِّرَاسَةِ التَّالِيَةِ مَجَالًا لِشَرْحِهَا وَإِبْضَاحِهَا، وَكَمْ يَكُونُ مَوْقِفُ الطَّلِبِ مِمَّا تَرَى عِنْدَمَا يَجِدُ ذَاكِرَتَهُ تُمَدُّهُ بِذَلِكَ الرِّصِيدِ الْمُدْخِرِ فِي فِتْرَةٍ نُضِجَ الْعَقْلِيُّ وَاكْتَمَلَهُ الْفِكْرِيُّ .

وتَسْتَعْرَبُ أَنْ هُوَ لِأَنَّ الَّذِينَ يَبْكُونَ إِشْفَاقًا عَلَى ذَاكِرَةِ الطِّفْلِ الْمُسْلِمِ لِأَنَّهُ يُؤْخَذُ بِحَفْظِ قُرْآنِهِ كَيْفَ لَا يَتَكَلَّمُونَ عَن أَطْفَالِهِمْ الَّذِينَ تَلَوَى عِظَامُهُمُ الطَّرِيَّةَ الصَّغِيرَةَ لِتَعْلِيمِهِمْ رِقَصَاتِ الْبَالِيَةِ !!

ومَطْهَرٌ آخَرُ مِنْ مِظَاهِرِ هَذَا الصَّرَاعِ، وَقَدْ كَانَ أَشَدَّ خَطَرًا وَأَبْعَدَ أَثَرًا وَأَكْثَرَ حَيْثِيًّا، تَمَثَّلَ هَذَا الْمِظْهَرُ فِي حَرَكَةِ نَشِطَةِ أَضْمَرِهَا أَعْدَاءُ الْأُمَّةِ وَعُمَلَاؤُهُمْ، كَانَ هَدَفُهَا قَطْعَ صَلَةِ حَاضِرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِمَاضِيهَا، وَقَطْعَ لُغَتِنَا مِنْ أَصْلِهَا حَتَّى نَفْقَدَ ذَلِكَ الرِّبَاطَ الَّذِي يَصِلُنَا بِثِرَوَاتِنَا الْفِكْرِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ، وَالَّتِي كَانَ مَدَارُهَا وَقُطْبُهَا فِي أَيَّامِ ازدهارِها هُوَ كِتَابُ اللهِ .

وأخذت هذه الحملة المسعورة سبيلين رئيسيين :

- قصد أحدهما إلى الحرف العربي فادعى قصوره وتعبده وعدم إيفائه بحاجة الكتبة والمؤلفين، وتعددت الاقتراحات باختراع حروف جديدة للغة العربية . وأذكر أن أثر هذه الشطحة قد وصل إلى صحف طرابلس، ووجد هنا - على ما أذكر - من أسهم باختراعه في هذا المضمار، والذي انتهى بدون شك إلى سلة المهملات . بل بلغ الأمر أن اقتراح بعضهم استبدال الحرف العربي الشريف بالحرف اللاتيني، ومن أشهر أصحاب هذه الدعوة في البلاد العربية المدعو سعيد عقل، وقد أصدر كتاباً طبعه بالحرف اللاتيني فعلاً .

وطال الأخذ والرّد في هذا الأمر، وأدلى الجميع بدلائلهم، فعادت فارغة والحمد لله . وواضح أن القصد من هذه الدعوة الهدامة وخلاصته أن يجيء يوم تنسى فيه الحرف العربي، ويحجب كل ميراثنا الكريم الغزير الذي كتب وطبع به عن الأجيال التي تجهلها، فنقطع صلتنا بالقرآن وتراث السلف .

وقد سارعت مخططات الأعداء إلى تنفيذ هذه الخطة في تركيا، وآل أمر المسلمين في تركيا إلى الحال التي تعيشها اليوم بعيدة عن نتاجها الضخم الغزير في ميدان الفكر الإسلامي، وأعجب بهذه الدعوة الخبيثة الهدامة !! .

- والسبيل الثاني لهذه الحركة هو ذلك التحامل الشديد على أسلوب النحو والقواعد اللغوية للغة العربية، فقد اشتد النقد على الأسلوب الذي اتخذته السلف لضبط قواعد لغتهم وتحديد أساليبها وصيغها في قواعد ثابتة محدودة، وسرت دعوة عالية صاحبة تندد بالكتب الصفراء وبالأسلوب العقيم والمنهج الفاسد - على حد زعمهم - الذي سلكه السلف رحمهم الله من فطاحل النحاة واللغة، بل ووجد من دعا إلى نحو جديد، ومن كتب نحواً جديداً .

وكان نتيجة ذلك هذه العقدة السخيفة التي تركزت عند متعلمينا من دراسة النحو، وخصوصاً في المدارس (المدنية!!)، فما تكاد تجد اليوم من

يتقن هذا العلم، لا ؛ بل لا تكاد تجد شاباً يحسن أولياته فضلاً عن أن يتعمق في أسراره، ما عدا من قرأه في معاهد الدين واللغة على الأسلوب القديم الذي تنتهج الجامعة الإسلامية نهجه اليوم .

وكان نتيجة ذلك أن نشأت أجيال لا تحسن تدوفاً للنص العربي ولا فهماً له ؛ لما غاب عنها من إدراك لعلاقات الكلمات بعضها ببعض، ولما غمض عنها من تبين تراكيب الأساليب التي يدرك علمها بامتلاك «النحو» على النحو الذي وضعه أسلافنا واضطلحوا عليه، واثبتت تجرئة دوامة لمدة ثلاثة عشر قرناً صلاحه واستقامته ونفعه . ورحم الله من وصف النحو بأنه علم نضج واحترق، وهنا قد أفلح أعداؤنا في الهدم إلى حد بعيد .

- وإلى جانب هاتين الصورتين برزت دعوة أخرى ذات نهج رهيب، وهي الدعوة إلى العامية، وبدلاً من أن نرفع العامة إلى لغة القرآن التي تحيينا بهديه ونوره صرنا نهبط إلى مستوى السوقة، نتلطف شهواتهم، ونستلطف عواطفهم، وتندلل لعقليتهم بحجة «الأدب للشعب، والفكر للشعب» .

وواضح خطر هذه الدعوة الشعوبية التي اعتبرها أخطر معاول الهدم لوحدة هذه الأمة، وأشدّها تأثيراً في إلهائها وإضلالها عن الحق الذي أنزل الله إليها على نبيه العربي الكريم . وللتوسع في معرفة أخطار هذه الدعوة وآثارها أرجو من القارئ الرجوع إلى رسالة الدكتوراه التي كتبتها الدكتور الفاضلة نفوسة زكريا بعنوان: «الدعوة إلى العامية»¹³⁴.

هذه بعض الوسائل التي ركزت الدعوة إليها قوم أعداء للإسلام، وحملها بعدهم بعض ممن يتسمون بأسمائنا ويتزئنون بأزيائنا ويؤلون أعدائنا . وهي رؤوس أقلام يجد القارئ ما يشفي غلته حولها من مصادرها المتعمقة التي يجدها في آخر هذا المقال¹³⁵.

134- طبع مؤخرًا في مضر.

135- لم أظفر بقائمة المصادر هذه لأني لم أفت على النص الأصلي للمقال المنشور في صحيفة العلم .

وهذه كلها بعضُ مظاهر التنفيذ للمُحَطَّط الذي حَدَدَتْهُ تلك الكلمةُ السالفة، أعني كلمة اللورد التَّالِف : مسْتَر وليم جيفورد بالكراف ؛ التي تَدْعُو في شَطْرهَا الأَوَّل إلى أن يَتَوَارَى القَرَأْنُ عن بلاد العرب، ليتدرَج العربيُّ - على زَعْمِهِ - في سبيل الحضارة الغربية، وتلك هي الدَّفْعَةُ الأولى من المَهْرِ المطلوب، فَلنَنْظُرُ في بقية الدَّفْعَاتِ في الحلقة التالية.¹³⁶

136- لَمْ أَعثرُ - للأسف - على بقية الحلقات التالية لهذا المقال .